ملخص البحث:

قام هذا البحث على قراءاة قصة (محنة ... ومنحة) للدكتور إبراهيم عوضين ، قراءة تحليلية نقدية ، وهي العمل الوحيد للكاتب في ميدان الإبداع القصصي ، وقد ألفها وهو دون العشرين عاما (سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م) وهي قصة اجتماعية إسلامية ، مستمدة من واقع الحياة المصرية الحديثة، أقامها الكاتب على طائفة من الشخصيات والأحداث والمعاني والقيم ؛ معتمدا في ذلك على مساره الأسلوبي الذي تنوع فيه بين السرد ، الحوار، الوصف ، الصورة المشهدية ، الخطاب التقريري ، ... ومجسدا بذلك تلك الثنائية المتقابلة الخالدة ، بين الخير والشر، والفضيلة والرزيلة ... من كل ما كشف عن مقدرة إبداعية خلاقة .

الكليمات المفتاحية : مقاربة نقدية ، قصة ، محنة ، منحة ، الدكتور إبراهيم عوضين .

Abstract:

This research is based on a critical analytical reading of the story entitled *Mihnah ... Minhah (Turbulence ... Allowance)* by Dr. Ibrahim Awadin. It is the writer's only work in the field of narrative creativity. He wrote it when he was under twenty years old (in the year ١٣٧٠ AH/١٩٥٠ AD). It is an Islamic social story, drawn from the reality of the modern Egyptian life.

The author constructed his story around a set of characters, incidents, meanings, and values. The author employed his diverse stylistic approach, incorporating narrative, dialogue, description, scenic imagery, and declaratory discourse. In doing so, he embodied that enduring duality between good and evil, virtue and vice, which revealed a creative and imaginative prowess.

Keywords: Critical approach, Story, *Turbulence ... Allowance*, Dr. Ibrahim Awadin

مقدمـــة

قصة (محنة ... ومنحة) للكاتب إبراهيم محمد إسماعيل عوضين[1]، اجتماعية إسلامية ، تبلغ مائة وثلاث وستين صفحة ، من القَطع المتوسط ، نُشرت سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م، المطبعة اليوسفية بطنطا .

ويرجع اختيار هذه القصة بالدراسة إلى أسباب عديدة ، من بينها :

١- أنها تُمثِّل مرحلة متقدمة من فن القصة العربية الحديثة في مصر، فقد كُتبت في نهاية العقد الخامس من القرن العشرين ، حيث كانت القصة العربية في مصر تسعى حثيثًا لتبرز في هيئة جديدة تناسب العصر من جهة ، وتناسب الأدباء العرب في مصر- وكانوا في مركز الصدارة- من جهة أخرى .

٢- أن كاتبها يدفع إلى تلك الدراسة لسببين :

أولاً ، لصغر سنه ؛ فقد كتبها وهو في العقد الثاني من عمره ؛ حيث كان قد بلغ ثمانية عشر عامًا- وفقًا لتاريخ نشر الرواية سنة ١٩٥٠م- ، ومثله لم يكن قد اكتملت تجربته الحيوية ، واللغوية، والفنية ... وعلى الرغم من ذلك ؛ فقد نالت القصة إقبالاً شعبيًا- على الرغم من محدودية نشرها ، وارتفاع لغتها- ، دون الوقوف على كيفية معالجتها وسبل نسجها !

ثانيًا ، لأن كاتبها لم يُعاود الكتابة في هذا الفن ، فكانت تلك هي العمل الوحيد له في ميدان الإبداع القصصي ، كما توجّه بعد ذلك للإبداع الشعري- وإن لم يداوم عليه- أيضًا. ثم اتّجه إلى التأليف المقالي ، بمختلف ألوانه . مما يثير التساؤل ، ويدعو إلى البحث عن سرّ هذا التحوُّل ، أيرجع إلى حيرة الكاتب أمام تلك الفنون ، وسعيه للبحث عن الفن الذي يجد فيه نفسه ، ويتلاءم مع توجُّهه وحرصه على مواجهة مختلف القضايا والمشكلات الإسلامية ؛ الاجتماعية ، والفكرية، والأدبية ؛ إذ إن الفن المقالي يكون أسرع استجابة وتأثيرًا في المتلقي ؟ ... إلى غير ذلك من التساؤلات التي قد يُثيرها هذا المسلك من ذلك الكاتب ؛ خصوصًا أن هناك من أدباء العربية وأدباء الغرب كذلك من سلك هذا المسلك أو قريبًا منه ؛ فهذا الدكتور محمد حسين هيكل في روايته (زينب) ، ولم يعاود الكَرَّة ، كما لم يقدِّم عباس محمود العقاد في مجال القصة سوى قصته (سارة) ، وكذلك الدكتور محمد كامل حسين لم يُقدِّم غير قصته (قرية ظالمة) .

٣- في تقديري أن العائد النقدي لا يتحقّق بالنظر النقدي في أعمال الأدباء الكبار فحسب، ولكنه كذلك يتحقّق بالنظر في أعمال الناشئين ، والأعمال الأدبية التي لم تكتمل نضجًا؛ فالنظر هنا وهناك ما دام جادّاً محايدًا ، فهو من غير شك سوف يؤدّي دور النقد المنصف في التبصير بمواطن الحسن ومواضع القبح ، والوقوف على الظواهر وتفسيرها ... إلى غير ذلك مما يُناط بالناقد إبرازه وتقييمه .

وإليك ما تحمله قصة (محنة ... ومنحة) من أبعاد وقيم حيوية وفنيّة ... وذلك من خلال محورين رئيسين متداخلين ، على النحو الآتي :

أولاً– المحتوى العـام

قصة (محنة ... ومنحة) قصة اجتماعية إسلامية ، مستمدة من صميم الحياة المصرية الحديثة ؛ إذ تُصَوِّر ما يدور داخل القصور من سلوكيّات حيويّة مختلفة . كما أنها تُجَسِّم هذا الصراع الأزلي بين الشيطان والإنسان ، بين الشر والخير ، بين الرذيلة والفضيلة ... تلك الثنائية التي أقام عليها الكاتب مجريات الأحداث ، والتي أدار حولها شخصياته .

وأما ما يُمثّل المحتوى العام في القصة ، فكان على النحو الآتي :

أ- مجريات الأحداث :

مما لا شك فيه أنّ الحدث هو الذي لا تقوم القصة إلّا به ؛ واقعيًّا أو عجائبيًّا ، زمانيًّا ومكانيّا، وهو الذي تنبني عليه معالم الشخصيات وأدوارها ، وهو الذي يترك أثره في ذهن المتلقي ... وذلك كُلُّه وفقًا لقدرة الكاتب على النسج والحبكة الفنية [٢].

وهذا ما سنقف عليه في قصة (محنة ... ومنحة) ؛ حيث دارت الأحداث بين ثنائية (السعادة / الشقاء) ، (الفضيلة/ الرذيلة)...وذلك من خلال عِدّة مشاهد وصراعات مادِّيَّة ونفسيَّة .

حيث استهلّ الكاتب سرديته واصفًا حياة (محمد بك) الشاب الغضّ الثري المحسن المتديّن. وقد حاول الشيطان– في غيره مرة– أن ينفذ إلى نفسه ، ولكنه لم يزدد إلّا تقرُّبًا إلى الله. ثم تزوج من (فاطمة) بنت (على بك دسوقي) – صاحب التقوى والعفاف– حماية لنفسه من فتن الشيطان .

ومَرَّت الأيام تباعًا حتى أنجبا طفلهما (محمود) الذي أكمل سعادتهما ، ومَرَّت السنون حتى بلغ من العمر ستة أعوام ، فألحقه أبوه بالتعليم الأزهري– على غير عادة أصحاب القصور– الذي تَفَوَّق فيه تفوُّقًا مُشَرِّفًا .

ودارت عجلة الزمن ، وما زالت حياة الأسرة– الزوج وزوجه وابنهما– تنعم بالاستقرار والسعادة ، دون أن يشوبها شائبة حزن أو شقاء . ولكن أبي القدر أن تظلّ هذه الحياة على استقرارها ؛ ففي ذات يوم أصيبت الأم (فاطمة) بارتجاج في مُخِّها ، وظن الطبيب أنها مُجَرَّد حالة إغماء ، وازدادت الحالة سوءًا ، وجعلت تتذَّكر ابنها الغائب (محمود) في لهفة وأسى ، وأخذت توصي أباه (محمد) عليه ، حتى فاضت روحها، فحزن الزوج حزنًا مَلَك عليه أقطار نفسه ، وكذلك الابن الذي لم يعلم إلّا بعد أن استدعاه والده من القاهرة ، حيث يواصل تعليمه الأزهري .

وبعد مرور خمسة أعوام على وفاة الزوجة ، شعر الزوج بحاجته إلى امرأة ، فحاول أن يبتعد عن هذه الفكرة ، وفاءً لزوجه ، ولكن الشيطان لم يُمهله ، فنسج خيوطه على فكره وشعوره ؛ حتى تزوج

من شابّة ماكرة لعوب (هدى) ، استطاعت أن تقلب حياته السَّوِيِّة الشريفة إلى حياة الرذيلة والانحلال ، كما تمكَّنت من الإيقاع بين الأب وابنه ، بعد أن فشلت في أن تقيم علاقة شاذّة مع ابن زوجها ، فطرده والده من حياته ومن القصر دون تفكير أو تردُّد ، ودون أن يستمع إلى استعطافاته وتوسُّلاته ؛ فقد أصبحت زوجته عقله وقلبه .

وهنا بدأت مأساة الابن ومحنته مع مصيره المجهول !

****

بينما الابن يصارع ظروفه القاسية ... وفي ذات يوم وهو في طريقه إلى منزله المتهالك، إذ به أمام فتاة (فاطمة) تستنجد به من مطاردة بعض الشباب ، فأنقذها محمود منهم بعد أن ادَّعى أنها أخته ، ثم طلبت إليه أن يصطحبها إلى منزله ضمانًا لحمايتها ، فاصطحبها بعد تردُّد وتفكير . وهناك حاول أن يُوفِّر لها سبل الراحة ، على الرغم من حاجته وشدة فقره ، كما استطاع أن يتغلَّب على خداع الشيطان ، الذي حاول أن ينفذ إليه في غير مرَّة ؛ فأعجبت به الفتاة وحمدت له شهامته وأخلاقه .

وانقضت تلك الليلة العصيبة بما شهدته من صراعات نفسية ، ثم اصطحبها الفتى إلى المحطّة ، لتسافر إلى بلدتها .

****

أخذت الفتاة تحكي لأبيها (فتحي بك) قصتها ، مما أثار إعجابه ، فبحث عنه وذهب إليه ليكافئه على شهامته وأخلاقه ... ثم اصطحبه إلى منزله– ذلك القصر العظيم– فسُرَّت الفتاة به سرورًا بالغًا . وهناك كانت المفاجأة ؛ حيث أعلن فتحي زواج ابنته من محمود ، مع تحمُّل نفقاتها ، فوافق الفتى بعد رفض وتردُّد ؛ فالفارق بينها كبير ، مما زاد من إعجاب فتحي بك ... لتتحوّل حياته من محنة الشقاء إلى منحة السعادة .

****

ولم ينس محمود في ظلّ حياته الجديدة مُربّيَتَه ، التي وقفت بجانبه في محنته ، على الرغم من ضيق حالها ، كما لم ينس أباه ، على الرغم مما لاقاه منه من ظلم وقسوة ؛ فأرسل إلى المُربِّية لتطمئنه على أحوالهما ، ويساعدها ببعض المال ؛ ففرحت المُربّية كثيرًا بالخطاب ، وراحت تُخبر أباه ، فلم يبال به . فأرسلت إليه تُطلعه على أخبار أبيه غير السارة ؛ حيث تحوّل القصر من مأوى للفقراء والمساكين إلى مرتع للفساد واحتساء الخمور؛ فحزن الابن كثيرًا على ما آل إليه حال أبيه .

****

ومرَّت الأيام ، وازدادت سعادة محمود ؛ رُزق بطفل ، ونال شهادة العالمية بتفوُّق !

ثم مات فتحي بك– متأثِّرًا بمرضه المفاجئ– بعد أن أوصى زوج ابنته (محمود) على كل ما يملك من ضياع وأموال .

ومن جهة أخرى ، فقد ضاقت (هدى) زوجة الأب المستهترة بحياتها مع محمود بك؛ حيث تبدّدت أمواله وثروته في أبواب العبث واللهو، ولم يعد هو ذلك الرجل الذي يطفئ ظمأها الأنثوي ؛ فأخذت تُحَقِّر من شأنه ، وتصمّه بالضعف والعجز ؛ ليحررِّها من قيده ، ولكن دون جدوى ، فاضطرت إلى أن تصارحه في قسوة بحقيقة أمرها مع ابنه، كاشفة عن خيانتها له ، وعن الظلم الذي أوقعه على ابنه ؛ مما أثار في نفسه مشاعر الندم والحزن والغضب ، فطردها من حياته ، وأخذ يبحث عن ابنه بمساعدة المُربِّية ، حتى ذهب إليه ، فقابله ابنه باشتياق ولهفة ، متجاهلاً ما حدث .

ومضى كلاهما يقصُّ على الآخر حكايته مع الأحداث والأيام ، ثم التقى الأب بزوج ابنه ، وضَمَّ حفيده إلى صدره في عطف وحنان ، وذلك في مشهد ضمّ إلى هؤلاء المُربيّةِ الفاضلة ؛ حيث أخذ يتحدَّث إليهم ، كاشفًا عن ندمه وأسفه العميق ، وداعيًا لهم بدوام السعادة والخير ، ومُتذكِّرًا زوجه الراحلة (أم محمود) ، الطيِّبة القلب ، ومُتمنِّيًا لو كان بجانبها ... ثم تركهم وانصرف هاربًا من ذكرياته الأليمة !

****

ب– طبيعة الشخصيات :–

شخصيات القصة– أي قصة– هم الذين تدور حولهم الأحداث، أو هم الذين يصنعون الأحداث ، وذلك وفق ما يريده الكاتب من جرّاء توظيفه الشخصية في دورها المحدّد ، لخدمة غرضه العام ؛ فكانت هناك الشخصية الرئيسة ، والثانوية ، والنامية ، والإيجابية ، والسلبية ، والعابرة ... إلى غير ذلك من الأنماط المتنوعة بتنوّع الشخصية وقيمة دورها ، مما يكون له أكبر الأثر في البناء السردي(٣).

ومما تقدّم من مجريات الأحداث في قصة (محنة ... ومنحة) ، نستطيع أن نستخلص طبيعة هؤلاء الشخصيات ؛ حيث رسمها الكاتب بدقة ، كاشفًا عن ملامحها وسماتها ، داخليًا وخارجيًّا ، وذلك وَفْقًا للنسق العام ، وحركة الأحداث وواقعيتها ، من حيث السلوك الأخلاقي والاجتماعي ؛ سواء بطريق الوصف السردي ، أو بطريق الحوار ، أو بطريق المفارقة التصويرية ... على ما سنتبيّنه لاحقًا !

وإليك ترجمة هؤلاء الشخصيات :–

١– محمد بك : الشاب الثري الشريف المُتحصِّن بالعفة ، السخي الكريم المحسن لأهل بلدته ، الذي تغلّب على الشيطان ولم يدعه ينفذ إليه ؛ بزواجه من العفيفة (فاطمة).

هذه كانت صورة محمد بك في الشطر الأول من حياته ؛ صورة إسلامية مشرقة !

ولكن سرعان ما تبدّلت هذه الصورة ، وتحوَّلت الشخصية السَّويَّة المثالية العفيفة ، إلى شخصية شاذّة منحرفة ؛ فبعد أن ماتت زوجه الطاهرة ، تمكّن الشيطان من قلبه وعقله ، فتزَوَّج من شابة لعوبًا ، يكبرها كثيرًا ، مستسلمًا لجماح شهوته ، فتلاعبت به ، وأعمته عن الإدراك .

ولم يكن أمام هذا الزوج البائس سوى إرضاء زوجه بكل الوسائل ؛ نظرًا لشعوره بالفارق السّني بينهما ؛ فطرد ابنه ظلمًا من القصر ، على أثر خديعة تلك الزوجة اللعوب ، وتحوَّل قصرُه الذي كان ملجأ للفقراء والإحسان، إلى مرتع لعبيد الهوى ، ومأوى للانحلال الشيطاني .

وظلّ الزوج على هذه الحالة المتردّية مخدوعًا في زوجه ، ويشعر بالضعف نحوها ، حتى ضاقت بحياتها معه ، فصارحته بحقيقة أمرها ، فطردها من حياته نادمًا حزينًا على ما ضاع من عمره معها ، وراح يبحث عن ابنه ، حتى التقى به وزوجه وحفيده ... فتحدث إليهم جميعًا بندم وأسف ، ثم انصرف هاربًا .

****

٢- فاطمة : ابنة (علي بك الدسوقي) ، وزوج محمد بك الأولى ، صاحبة الطُّهر والعفاف والتقوى ، شاركت زوجها حياته الطّيّبة ... وفي ذات يوم مرضت مرضًا أفقدها وعيها ، فجعلت تستمهل الموت وتستعطفه ، وتتضرّع إلى الله أن يُمهلها حتى ترى ابنها الغائب – حيث كان في تعليمه الأزهري في القاهرة– ولكن دون جدوى !!

****

٣- علي بك الدسوقي : والد فاطمة ؛ ذلك الرجل المُتديِّن الذي رحَّب كثيرًا بزواج ابنته من (محمد بك) لسيرته الطيبة حينئذ ، وقد أوصاه عليها باتباع الخلق الإسلامي .

****

٤- محمود : ابن (محمد بك) ، ذلك الفتى الذي يُعدّ الشخصية الأولى في مجرى الأحداث، وكان ناجحًا مُوفّقًا في كل مجريات حياته ؛ فتراه مُتفوّقًا في تعليمه الأزهري، وتراه مُبديًا تماسكه وشجاعته أمام انهيار أبيه على أثر وفاة أمه (فاطمة) ، مُخفيًا ما يشعر به من مرارة وحسرة وأسى ... !

وهو الابن العاقل الذي لم يعترض على زواج أبيه ، مُنتحِلاً له الأعذار ... !

وهو الشاب الذي لاقه أقسى محنة في حياته ، حينما عرضت عليه زوج أبيه رغبتها المحمومة في غيرة مرّة ، ولكن ضميره وأخلاقه وبيئته ، وتعليمه الأزهري ... كل هذا وقف حائلاً دون استجابته لها ؛ مما جعلها تنقلب عليه بوجهها الآخر ، فَتمَكَّنت من الإيقاع بينه وبين أبيه ، فطرده من القصر دون تردُّد ، ودون أن يستمع إلى توسُّلاته ... فخرج مهمومًا حزينًا لا يعلم مصيره .

وفي ظلّ هذه المأساة تعرّض الشاب لاختبار أخلاقي جديد ، فقد ساقت الأقدار إليه فتاة جميلة تستنجد به من عبث بعض الشباب اللاهي ، وتطلب إليه أن يصطحبها إلى منزله ، حماية لها ، فاستجاب بعد طول تردد وتفكير . وهنا حاول الشيطان أن ينفذ إلى نفسه في غير مرة ، وكاد ينجح ، ولكن سرعان ما استيقظ ضميره ونادته أخلاقه بمحاربة الشيطان ، فعاد إلى نفسه منتصرًا للفضيلة .

وقد تزوَّج هذه الفتاة بعد أن حاز إعجابها وإعجاب والدها ... لتنتهي بذلك مأساته !!

****

٥- هدى : المرأة الماكرة اللعوب ، كانت على قدر كبير من الجمال ، استطاعت أن تُغيِّر مجرى حياة زوجها (محمد بك) ، وتُحوّله من الخير إلى الشر ، وقد رأت في زواجها منه ما يُرضي تطلّعاتها المادية ... ولكنها سرعان ما حاولت – في غير مرة – أن تقيم علاقة مُحرّمة مع ابن زوجها ، ولكنها أمام رفض الابن القاطع ، انقلبت عليه ، واستطاعت أن توقع بينه وبين أبيه ، حتى طرده من القصر ظلمًا .

ومع مرور الزمن ، ضاقت بحياتها مع زوجها ؛ إذ لم يعد قادرًا على إشباع رغبتها الشهوانية ، كما نفدت أمواله على الحفلات الشيطانية ... فما كان منها إلّا أن صارحته –في قسوة– بحقيقة أمرها ، حتى طردها من حياته !!

****

٦- فاطمة : ابنة (فتحي بك) ، وزوج محمود ، الفتاة الجميلة ، صاحبة الأخلاق الحميدة... قد ساقها القدر إلى (محمود) ، تستنجد به من لهو هؤلاء الشباب وعبثهم ، وطلبت منه يصطحبها إلى منزله لحمايتها في تلك الليلة العصيبة ، وما أقبلت على ذلك إلّا لشعورها بأخلاقه وشهامته ، وصَدَق حَدْسُها .

وراحت تقصُّ على أهلها قصته مبدية إعجابها بأخلاقه وشهامته ، فأعجب أبوها به، وسعى جاهدًا لزواجهما ، فسُرَّت الفتاة بذلك سرورًا بالغًا .

****

٧- فتحي بك : أبو فاطمة ، الرجل الثري صاحب القصور والحدائق ، والأعمال الفاضلة الكريمة ، دون انقطاع ؛ فحوى وذريته الجمال والكمال .

****

٨- المُربّية : على الرغم من ثانوية هذه الشخصية ، فإنّ دورها كان مُؤثّرًا في مجريات الأحداث ؛ حيث خفّفت كثيرًا من وطأة الظلم الواقع على (محمود) ، وأسهمت في مواصلته الطريق ، وفي عودته إلى أبيه.

****

٩- عبد الحميد : صديق (محمود) ، لم يكن له دورٌ أكثر من وقوفه مع صاحبه في محنته ، يوم علم بوفاة أمه .

****

والكاتب في انتقاء شخصيات القصة كان على وعي بدور كُلِّ شخص في تقديم ما يريد أن يُقيم عليه الأحداث ؛ فهي ليست انعكاسًا للمجتمع المصري كله في ذلك الوقت ، ولكنها تُمثِّل بعض شرائح ذلك المجتمع .

فالثراء لم يكن بالحتم أحد قرائن السوء أو أحد مظاهره ، ولا كان داعيًا إلى الغربة عن المجتمع أو التعالي عليه ، ولكنه كان حالة تُلابس الشريف المؤمن كما تُلابس الوضيع المتفلِّت .

والتديُّن ليس من صفات الطبقة الفقيرة أو الكادحة فحسب ، ولا من صفات الشيوخ الطاعنين في السن فقط ، ولكنه كان من سمات المجتمع المصري- في جملته- ، بحيث يضمّ المجتمع هؤلاء إلى جانب أولئك في توازن يلائم تلك الحقبة وما كانت عليه البيئة المصرية ، أو ما كان الكاتب يرى عليه البيئة المصرية .

****

ج- أبعاد اجتماعية :

إن المتأمِّل في مجريات الأحداث وطبيعة الشخصيات يلاحظ مدى ارتباط الكاتب الوثيق بالواقعية الإسلامية ؛ حيث تجسَّد ذلك في العديد من المظاهر الحيوية المصرية الحديثة ؛ اجتماعيًا وسلوكيًّا ، خصوصًا في وقت كتابة القصة ... ومن ذلك الآتي :

١- التّحلِّي بالشرف والفضيلة ؛ هذه السمة تتجلَّى شاخصة لدى العديد من الشخصيات الذين دارت عليهم الأحداث ؛ فهذا (محمد بك) الذي تحصَّن في النصف الأول من حياته بالقيم الخلقية ؛ حيث جعل من قصره مأوى للفقراء والمساكين . وهذه زوجة (فاطمة) صاحبة الطهر والعفاف . وهذا ابنه (محمود) الفتى الذي لم يتمكّن فيه الشيطان ، على الرغم مما مرَّ به مواقف قاسية ؛ فكان مثالاً رائعًا للصمود أمام زخارف الشيطان . وهناك (فتحي بك) الرجل الثري ، صاحب القصور والضياع ، وصاحب الأعمال الفاضلة الكريمة ، الذي أنشأ ذريته على الشرف والفضيلة ، فكانت ابنته (فاطمة). كما كانت هناك المُربِّية الوفيّة النبيلة .

٢- الانغماس في اللهو والمجون ؛ وتتمثَّل هذه الظاهرة في زوج محمد بك الثانية (هدى) الماكرة اللعوب ؛ حيث حاولت في غير مرة الانتصار للانحلال والرذيلة . كما رأينا هذا العبث في النصف الآخر من حياة محمد بك ، الذي جعل قصره مرتعًا لعبيد الهوى والرغبة . كما تجلّى هذا الانفلات الأخلاقي في لهو هؤلاء الشباب وعبثهم ، حينما حاولوا الإيقاع بالفتاة (فاطمة) والفتك بها .

٣- مكر المرأة وخداعها ؛ وجسّدت (هدى) هذه الصفة ؛ وذلك في أكثر من مشهد؛ حيث استطاعت أن تصرف ابن زوجها (محمود) عن حقيقة مقصدها الشيطاني ، بعد أن تبيَّنت موقفه الرافض لرغبتها ، زاعمة أنها كانت تختبر أخلاقه . ثم اختلقت قصة لزوجها ادّعت فيها أن ابنه حاول الاعتداء عليها انتقامًا منه ، ثم أرسلت إلى الفتى خطاب تقلب فيه الحقائق ، عسى أن يقع الخطاب في يد زوجها فيتأكد من صدقها .

٤- مشكلة زوجة الأب ، وما تُثيره في الأسرة المصرية المستقرّة من شِقاق ، يُصيبها بالتفكُّك ، ويقضي على ما كانت عليه من أمن وأمان ، خصوصًا إذا كانت الزوجة تصغر الزوج كثيرًا ، ولم تكن من بيئة مناسبة .

والناظر فيما تضمَّنته كتابات تلك المرحلة من العصر ، يلاحظ أن تلك المشكلة الاجتماعية كانت من أوسع المشكلات تناولاً ؛ سواء في ذلك القصة والمقالة والخطبة .

والقصة التي بين أيدينا تعطي هذه المشكلة بعدًا بارزًا ، بحيث تكاد تكون هي محور الأحداث والتَّغيُّرات التي طرأت على شخصياتها .

٥- إمكان التوازن الاجتماعي في ظِلّ الأخلاقيات والقيم الإسلامية ، دون أن يكون للفوارق الطارئة من غنى وفقر ذلك التأثير الحاد الذي يقيم الحواجز ، وينشئ الصراع ، ويُؤكّد الثورة على نحو ما يتوهَّمه ماركس وأتباعه ؛ فقد رأينا في مطلع تلك القصة الرجل الثري الذي لا يقطعه الثراء عن المحتاجين ، ثم رأينا في نهايتها أن الفقر لم يقف حائلاً دون زواج الشاب الفقير من الفتاة الثرية ، حين رأى فيه أبوها ما هو أهم من الثراء في تأسيس بيت الزوجية من المنظور الإسلامي القائم على توجيه الرسول × : " **إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه** " .

إلى آخر هذه الأبعاد الاجتماعية ، الذي بدا فيها واضحًا دور القيم الدينية في بناء الشخصية السَّويّة القويَّة التي تستطيع أن تواجه مفاجآت الحياة ، وتقلُّبات الزمن ، ونوازع النفس في صمود لا يلين. !

****

ثانيًا- المسار الأسلوبـي

الناظر في قصة (محنة ... ومنحة) يدرك أن الكاتب وُفِّق غاية التوفيق في اختيار هذا العنوان لقصته ؛ حيث كان متلائمًا مع ثنائية الأحداث ، وكاشفًا للغاية والفكرة ، ومرتبطًا ارتباطًا عضويّا بطبيعة الشخصية ، التي تلاعبت بها الأقدار فيما بين هذين المحورين المتقابلين؛ (الخير/الشر) . فكم وقفنا على مواقف المحن والأزمات ، وكم رأينا مشاهد المنح والعطايا... فكان لهذا العنوان أثره في هذا الانسجام العضوي بين مختلف تضاعيف القصة ، فيما أدى إلى ما يُعرف بـ (التماسُك النصي) ، على ما سنتبيَّنه في ثنايا وقوفنا على أبرز السمات والخصائص ... في النحو الآتي :

أ- السرد / الحوار / الوصف :

مما لاشك فيه أن دعائم (السرد/الحوار/الوصف) ، هي التي يقوم عليها البناء القصصي؛ كُلٌّ بما يتناسب مع السياق والموقف ؛ في حكي الحدث ، ووصف المكان والزمان . وتصوير الشخصية خارجيًّا ، والتَّعمُّق فيها داخليّاً [٤] !

ونظرًا لما بين هذه العناصر الأسلوبية من تداخل وتلاحم في البناء السردي ، سنقف عليها مجتمعة ؛ حفاظًا على تسلسل الأحداث ، وإدراكًا لما قامت عليه مجتمعة من تأثير وإثارة وتشويق ؛ إذ الفصل بينها- عمومًا- يؤدِّي إلى تمزيق النصّ من سياقه ، وينتهي إلى التكرار والتشويه والاضطراب !!

بيد أن هذا التحليل سيقف على أثر كل عنصر في موضعه ... وذلك على النحو الآتي:

- ١ -

لقد نسج الكاتب هذا المشهد الذي ضمّ الاب (محمد بك) وابنه (محمود) ، في أعقاب استدعائه من القاهرة ليحضر دفن أمه (فاطمة) ، ولم يكن يعلم سبب هذا الاستدعاء المفاجئ... وذلك قوله ، مستَنِدًا إلى الحوار الخارجي (الديالوج) بينهما ، ومُسْتَهلاً بالوصف [٥] :

" نفضوا أيديهم بعد مواراتها القبر ، ثم قفلوا عائدين كُلٌّ إلى محلِّ عمله ، وتابع بعضهم السير مع (محمود باشا) ليواسونه ويُهدِّئون من حزنه إلى أن حضر (محمد ابنه) مستفهمًا عن السبب في ذلك الطلب العاجل على غير العادة :

- الابن : ماذا جرى يا والدي ؟ لِمَ أقيم هذا السرادق ولِمَ يقابلني الناس دامعي العين يُعزُّونني ؟ هل مات من العائلة أحد ؟ أم ما السبب في كل ذلك ؟

الأب ، فاغرورقت عيناه بالدموع وجاوبه ، قائلاً : بني ، جرى علينا القدر ليلة أمس ، فامتدت المنون وانتزعت أنضى جوهرة في عِقد العائلة بدون ما إذن أو استعداد ! ... نعم نزع الموت أثمن

جوهرة وألمعها ، يا له من جبّار غاشم ؛ يتجرّأ على البيوت الآمنة الهادئة ، فيذهب بأمنها ويمحو هدوءها ... والله لو سمعها أي إنسان ليلة أمس ، وهي تتوسّل إلى ذلك الفظّ الغليظ بكل التوسُّلات ليُمهلها حتى ترى ابنها لَتفتّت كبده ، ولَخرّ صاعقًا . بل ولَذَهبت روحه شعاعًا قبل أن تُقْبَض هي ... نعم يا بني ، لقد استمهلت هذا الطارئ كثيرًا حتى تُتاح لها فرصة رؤية ابنها ، ولكن دون جدوى ، فقد انقضَّ عليها كالوحش الكاسر وأعمل مخالبه فيها بدون ما رحمة ولا إشفاق ، وكأن كلامها لم يؤثر فيه ! .. انقضَّ عليها فأزهق روحها ... صعدت روحها إلى بارئها غاضبة ساخطة على ملك الموت الذي لم يُمهلها حتى تراك .

الابن ، أبي : ماذا تقول ؟ لا أحب أن أسمع مثل هذا الكلام ، فما فعل ملك الموت معها ذلك إلّا بأمر من ربّه وربّك ... بالله لا تقل ذلك ثانية ، فما صعدت روحها غاضبة ساخطة كما تقول ... بل صعدت راضية مرضية ... أبي : إنك تريد بعض الراحة ... نعم أنت في حاجة إلى ذلك ! اذهب إلى فراشك . (وأشار إلى بعض أقربائه فقام وهو معه ، وجعل يستبصره وذهب به إلى فراشه) ".

****

على هذا النحو، جسَّد الكاتب هذا المشهد الحواري المُؤثِّر الذي أداره بين الأب وابنه ، ولعلّ أوّل ما يلفت النظر في هذا الحوار الاستطراد والإطالة ، وخاصّة من جانب الأب. وقد استهلّ الحوار بتساؤلات الابن المتتابعة الكاشفة عن حيرته وخوفه من المجهول ، فكانت إجابة الأب مستفيضة مؤثِّرة ، تُعبِّر عن شعوره بمرارة الحزن والأسى، إزاء فقده زوجه ؛ إذ وجد من تساؤلات ابنه أداة يُفَجِّر بها ما يعتمل في صدره من آلام وأحزان، مُصَوِّرًا انقضاض الموت عليها بالوحش الكاسر الذي أعمل مخالبه فيها دون رحمة . ولكن الابن أمام انهيار أبيه لم يجد بدّا من التظاهر بالتماسك والشجاعة ، ليُخَفِّف عنه وطأة الأسى ، ويَرُدّه عن خطئه العقدي الذي جرفه إليه حزنه الشديد ، فأفقده صوابه ، على الرغم من أنه هو الآخر كاد ينفجر من أعماقه حزنًا وألمًا .

****

– ٢ –

هذا ، وقد تابع الكاتب هذا الحوار الخارجي بين الأب وابنه ، بحوار آخر داخلي بين الابن ونفسه (حديث النفس) أو ما يُعرف أو بـ (المونولوج) ... وذلك قوله ، مستفيضًا في تصويره مدى حزن الابن ، ومازجًا بعباراته الوصفية [٦].

"كان محمد يتكلم مُظهرًا الشجاعة خوفًا على والده . ولكنه في أعماق نفسه كاد ينفجر باكيًا، لولا تحامله عليها بكل ما أوتي من قوة وسلطان . ولكنه رجع إلى نفسه المجروحة قائلاً : كنت آخر طلبتها ! ربّاه

، أنت أعلم كم كنت أودّ أن أحقق طلبتها... سامحيني ... اغفري ذنبي ...

أُمّاه ، طلبتيني ولم تريني ، ومتّ ولم أراك ... آه ، وأيضًا دُفنت ولم أحمل نعشك سويعة كما حملتني تسعًا ... يا الله ما أسرع مرور تلك الأحداث ! ... ترأّف بنا فأنت الرؤوف الرحيم .

أُمّاه ، لا تغضبي مني ... أُمّاه ، لا تسخطي عليّ ... أُمّاه ، ما كنت لأقدر أن أفعل شيئًا ... غفرانك ... غفرانك ، فأنا لاشك الجاني ... أنا الجاني على كل حال . فكيف لم يحدثني قلبي بما تُعانين ؛ حتى أحضر إليك في الوقت الذي كنت تطلبيني فيه باكية حزينة ... أنا ، أنا الجاني ، قتلتك ببطء في عدم تلبيتك دعوتك .. آه قتلتك ! يا لي من عاق لا استحق سوى الأليم من العذاب.

ربَّاه ، رحمتك الواسعة ، ارحمني ... ارحمني .. فلن ينفعني الآن إلّا ذلك . رحماك .. رحماك، أمتني كما أمتّها ، ربّ موتي لن يضرك ، وبكائي لن ينفعك ، فارحمني وأرسل إليّ ملك الموت ليقبضني سريعًا .

آه .. آه ، مذنب آثم يرجو الرحمة ! عجب وأي عجب ! ولكن لِمَ أعجب ؟ أليس هو قادر على أن يغفر لي ويرحمني برحمته الواسعة ؟! ولكن أين ؟! هذا دليل على غضبه عليَّ، ولِمَ لا يغضب وأنا السبب في إعدام مَن تَسبَّب في إيجادي ، ولِمَ لا وأنا قاتل أمي ! قاتلها بأفتك سلاح ... آه ! نادتني مكروبة فلم أُجبها ، ودعتني لأعاونها فلَم أُلبّ دعوتها.

أمّاه ، عفوك ورضاك ، ارحميني فما يرضيك ما أنا عليه الآن ، اغفري لي ذنبي ، وارض عنّي ، فما ينقصني غير رضاك ...

أمّاه ، عصيتك حيّة حي سخطّ عليّ ، ولكن والله أعلم أني لم يكن في وسعي أن أفعل شيئًا، وهأنذا أُطيعك ميتة حتى تتنازلي عن حقك ، برضاك عليّ ...

أمّاه ، إنها مصادفة حسنة تُبرهن لك صدق ولدك ، فأنت تعلمين ما عليه جيلنا من المراءاة ، يُطيع ما دام المطاع على قيد الحياة ، فإذا ما ذهب إلى عالم الأخريات ، انقلب ذلك الحمل الوديع إلى ذئب مفترس ، لا يترك شيئًا إلّا فعله ، ولكن ها هي المصادفات تمشي بجواري ، وتطالبك بالصفح عن ولدك المخطئ بغير رضا ".

****

على هذا النحو ، جسَّد الكاتب مدى انهيار الابن إزاء موت أمه ، مما أفقده الصواب– في الكثير من العبارات – على غير ما بدا في تماسكه أمام أبيه ، فيما دار بينهما من حوار سابق.

وقد عبّر الكاتب عمّا دار في صدر الابن من عميق الحزن والأسى ، في حديث الابن مع نفسه ، في هذا التدفّقُ والاسترسال ، ممّا أدّى إلى تلك الإطالة والاستعطاف والاستكانة ، فيما يُشبه

الخطبة ، مخاطبًا بها نفسه في اللاوعي ... وفي ذلك يقول الكاتب ، مُعَلِّقا ، وواصفًا حال الابن بعد أن تنبّه لما هو عليه : (٧)

"بهذه الخطبة الكبيرة ، وذلك الدفاع المُطوّل ، والاستعطاف المملوء ذِلّة واستكانة، خاطب نفسه وهو جالس بين المُعَزِّين ، فلم يُنَبِّهه إلى حالته إلّا تلك الدمعة الساخنة الساقطة فوق يده .

اهتز وجهه مضطربًا ، كمن لا يُصدِّق هذه الدمعة الخائنة ، كيف يُقدم على البكاء أمام الناس ؟ خطر له هذا الخاطر ، فتلافاها مُسرعًا ، وأخرج منديله ، وجفّف به عينيه مُظهرًا عدم الاكتراث بتلك المُلِمّات المتداولة ...".

****

– ٣ –

وإليك إلى هذا الحوار الداخلي ، أو حديث النفس (المونولوج) ، الذي صَوّر فيه الكاتب ذلك الصراع المحتدم في صدر الأب (محمد بك) بين رغبته المحمومة في الزواج من أخرى خلفًا لزوجه الفقيدة ، وبين اعتزازه بها وإشفاقه على ابنه ... وقد انتهى هذا الصراع بانتصار رغبته المادية ، بعد أن التمس لنفسه الأعذار والمُبرّرات ... وذلك قوله، مُستهِّلاً بمقدمة وصفية كاشفة ، ومتابعًا حركة الزمن(٨) :

" مضت الأيام تتلوها الأيام ، والسنون تتبعها السنون ، إلى أن تكاملت خمسًا ... خمس مضين على وفاة تلك الزوجة البارّة ، والأم الرءوم ، والسيدة المحسنة ...

كذلك مضت هذه الفترة على الزوج الثريّ المؤمن ، ولم يتغيَّر في مجرى حياته ، أو شؤونه الحيوية سوى تلك النظرة التي يلمسها ! فبعد أن كانا اثنين يعيشان في هناءة ورغد ، أصبحا فردًا واحدًا .

فكم من مرة تُحدِّثهُ نفسه بأن يستعيض عن الفقيدة بأخرى ، ترث مكانها من قلبه، وإن كانت لن تسدّه ، مهما بلغت ، ولكنه كان يكيل لنفسه ولشهوته الدنيئة السباب والشتائم : كيف تُسَوِّل له أن يقترن بأخرى غير تلك الزوجة الشريفة النقيّة ؟ إنه ليس إلّا من إيحاء الشيطان ، أراد من ورائه أن ينصب له فخّاً ؛ حتى يقلب حياته الزوجية الخيالية إلى حياة شِقاق ونِزاع . أبهذه السرعة مللت وأردت نبذها ، بِحُجّة أن هناك غيرها ؟ كلا ، كلا .. لن أتزوّج غيرها مدة حياتي ، ولها أن تُسجّل هذا عهدًا لها عليَّ بذلك . نعم لن أقترن بأخرى تكون سببًا في النزاع الدائم بيني وبين ولدي الأوحد ، لن يكون ذلك أبدًا ... أأتزوج الشِّقاق بيني أنا الأب الرحيم الشفوق ، وبين ابني ذلك الولد الطيِّب القلب البار بوالديه (الميت والحيّ) ؟!

مضت تلك السنوات الخمس ، تتخلّلها المضايقات بينه وبين نفسه إلى أن اشتدت وطأتها وتسلَّحت الشهوة بأقوى الأسلحة ، حتى بدأت تتغلَّب عليه ، وهاهو يُظهر ضعفًا لم يعهده أمام تلك القوة

الشديدة الفتّاكة ... هاهو يُصَمِّم على الزواج بعد جدال عنيف بينه وبين شهوته، دامت مدته خمس سنوات خرجت فيها الشهوة منتصرة أيّما انتصار ، لقد تسلّحت أمام امتناعه وتمسُّكه بسلاح الإغراء .

نعم إنك تخاف على خَلْف الوعد ولكن أتعلم أن حالتك الراهنة لا تُرضي زوجتك الراحلة ! إنها أرحم من أن تتركك هكذا ولن تمكث حتى تصفح عنك . أما خوفك على مستقبل ولدك ، فما يُضيرك حين تستشيره في ذلك ، وأنت تعلم أنه بار بوالديه ! إذن فلن يتوانى في الإجابة عليك : ما أردته يكون يا والدي .

ثم لِتَعلم أنه الآن يطرق أبواب التَّخرُّج ، فما هي إلّا سنوات معدودات ؛ حتى يكون رجلاً يُشمِّر عن ساعديه ، وينزل في معترك الحياة ، فلا تخف عليه إذ استمرارك على تلك الحالة لا يرضي أي إنسان . هذا زيادة عما سيجلبه زواجك من الخيرات ؛ فستعتمد على مَن يُدير دفّة المنزل ... نعم سيكون لك من يقوم بالإشراف على منزلك بدلاً من تركه هكذا ، تتقاذفه الأعاصير، وتتلقَّفه أيدي المختلسين ... إنك بهذا ستحيي الفقيدة الراحلة ؛ فهي الآن في أشد الألم على تلك الأموال الضائعة ، بسبب تمسُّكك بتقاليد باطلة ، وآثار معوجة ! سيكون هناك من يطبع تلك القبلات الوادعة على وجنة ولدك المسكين كما كانت تفعل به في وداعه (الراحلة الكريمة) ... " .

****

هكذا ، اتّسم هذا الحوار الداخلي ، أو حديث النفس ، بالإطناب المُعبّر عن هذا التَّدفُّق والصراع العنيف بين شهوة النفس وبين الوفاء لزوجه الراحلة . هذا الصراع الذي انتصرت فيه الرغبة ، بعد أن أقنع الرجل نفسه بكافة الأسباب والمُبرّرات .

وقد تدخّل الكاتب بعباراته الوصفية المناسبة ، الكاشفة البعد الزماني في هذا المشهد، والمُصَوِّرة ما تُكِنّة النفس من صراع محتدم .

بيد أن الكاتب تدخّل واصفًا ما أثمره هذا الصراع النفسي في سلوك الرجل وفي تغيير مجرى حياته، قائلاً (٩) :

" بهذه الألفاظ المعسولة ، والأماني الكاذبة ، تغلّبت الشهوة على خصمها العنيد ... هكذا استلّت خنجرها ، وجاءت من خلف لتضربه . أثّرت تلك الخواطر في نفسه ، وغيَّرت مجرى حياته ، فبدأ الطريق يُظلم في وجهه ، حتى أصبحت شهوته مالكة زمامه ، تُسيّره أنَّي وكيف شاءت ... " .

****

– ٤ –

ومن المواقف والمشاهد التي شكّلت بؤرة الأحداث ، والتي أسهمت في هذا البناء السردي ... ما

تجلّى في تلك المواجهة بين زوجة الأب (هدى) ، وبين ابن الزوج (محمود)؛ حيث عرضت عليه رغبتها الشيطانية ، ولكن ضمير الابن وأخلاقه وقفا حائلاً دون تحقيق هذه الرغبة ، فاستطاعت بمكرها أن تصرفه عن فهم حقيقة مقصدها ... فدار بينهما هذا الحوار الذي استهلّه الكاتب بمقدمة سردية وصفية، كاشفة عن رغبة هذه المرأة، وانتصار شهوتها على عقلها ... في قوله (١٠) :

"من هنا ابتدأت المأساة ، وإلى هنا انتهت ... أحبّت ابن زوجها ، لأوّل لحظة وقعت عليه عيناها، وظلّت طوال هذه المدة تجاهد وتناضل وتحيط الموضوع سياجًا من الفولاذ، خوف الفضيحة ، ولكن إلى متى ؟! ... لم تتمالك نفسها ، حتى صارحته بأنها تحبه ...

زوجة الأب : محمود ، أحبك ... أحبك من كل قلبي ، لا كُحب الأمهات ، بل حب الفتاة للفتى .

خرجت هذه الكلمات من فمها دون وعي منها ، فإنما لم تكن هي في الحقيقة المتكلمة ، ولكنها ضربات القلب ترجمها اللسان . نزلت هذه الجملة الصغيرة على الفتى كالصاعقة نزلت من السماء ، بل ربما الصاعقة أهون من ذلك العار . كيف يكون ذلك ؟! أيكون عشيق أمه ؟! أيجعل من بيته مذبحًا للفضيلة ؟! يا الله كيف يكون ذلك ؟! .

ابن الزوج : أمّاه من أنبأك بأنني عزمت على خيانة أبي ؟! أو بالأحرى هل سمعت في تلك الأساطير أنّ ابنًا كان عشيق أمّه ؟ إن كان ذلك فجسّميه أمام ناظريك ، وجابهي نفسك بتلك الصورة ، وانظري شعورك نحو ذلك الجرم الفظيع ، وتلك الخيانة العظمى... خيانة من كل الوجوه ؛ خيانة الأبوّة ، خياة البنوّة ، خيانة التقاليد السماوية ، خيانة الفضيلة ! انظري أهناك مجرم أشنع جُرمًا من هذا الوغد الخائن ، والمجرم الأثيم (عشيق الأم) ؟! كلّا إلى يوم الدين ، فلن يكون شيء مما ذكرت ، بل أبوء بلعنة من الله وملائكته والناس أجمعين ، إن كنت بالذي يُقدم على هذه الفعلة النكراء ! استغفري ذنبك ، وراجعي نفسك ، وقولي معي : لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم ، تبت إليك ربّ ، وندمت على ما فعلت ، ولن أعود لمثله أبدًا . وأما أنا فعليَّ عهد لله ألّا تسمعي بهذا من أي إنسان ، ما دمت لن تعودي لمثله .

ظلّت صامتة طوال هذه المدة ، حتى إذا ما أمسك عن الكلام ، استأنفت تقول : أي بني.. الله لك ! ما أشدّ حرصك على الشرف والفضيلة ! نعم الولد أنت ! أظننت كلامي حقيقة؟!... ولكن ثورتك هذه يجب أن تكون ألذع مما قلت ... إني ما فعلت هذا إلّا لأمتحنك، ولكن ها أنت تخرج منه فائزًا منصورًا ، فهنيئًا لك ما حييت ، هنيئًا لك على ما أوتيت من قوة الإيمان ، وصدق العزيمة ، وإني أعترف لك بأن نفسي قد حدَّثتني كثيرًا عن شعورك نحو والدك وزوجه ، ولكن أردت أن أتأكد من صدق حَدْسي وها أنت تقف بجانبه ، رافعًا راية الشرف والفضيلة فاذهب بارك الله فيك من ابن بار، وولد كريم !

قالت ذلك وهي تتميَّز غيظًا ، وتختنق حِنقًا ، ولولا صمودها أمام تلك العاصفة ، وتمالكها لنفسها ، لما قدرت أن تصرفه عن فهم حقيقة مقصدها ، كما فعلت ، ولكن ها هي صرفته من عندها ، بعد أن محت تلك الوصمة التي كاد يُسَجِّلها عليها ... وجعلت تُدَبِّر الحيل حتى لا يأتي يوم يكون عليها أي ذنب مما يحدث .

ربما لا زال يعتقد أني كنت جادة في عَرْضي ؛ إذن فوجودي في هذا المنزل ، مُعَلَّق على كلمة من لسانه ، يجب أن أعمل على التفرقة بينه وبيننا ، حتى لا أكون واقعة تحت تأثير معرفة هذا حقيقتي .

كل هذا خطر لها عقب خروجه من عندها " .

****

هكذا ، اتّسم هذا المشهد الحواري بالحركة والإثارة الحِسِّيّة والانفعال ، وقد مزج الكاتب هذا الحوار الخارجي (الديالوج) بحوار آخر داخلي (المونولوج) ، كما تدخل الكاتب بعباراته الوصفية الكاشفة ... مما أعان المتلقي على استيعاب الموقف ، والتغلغل في أعماق الشخصية ؛ حيث كشف هذا الحوار طبيعة الشخصيتين المتحاورتين ؛ فزوجة الأب امرأة ماكرة لعوب ، استجابة لشهوتها المحمومة ، بينما الابن فتى يتحلّى بالشرف والفضيلة وقوة الإرادة ، دفعه سلوكه الأخلاقي إلى هذا الأسلوب الخطابي الوعظي الانفعالي . فلم تجد تلك المرأة بُدًّا من خداعه وصرفه عن حقيقة مقصدها !

****

– ٥ –

وتتوالى الأحداث ... حيث أخذ الكاتب يصف انقلاب تلك المرأة الماكرة على (محمود)، مصوّرًا خداعها ومكرها ، ومبينًا انخداع زوجها في كلامها ... وذلك قوله ، متابعًا (الزمن) ، ومعتمدًا على ثلاثية (السرد / الحوار/ الوصف)[١١] :

" وبعد مُضيّ نحو من أسبوع ، بدأت تتأسَّد في وجهه وأخذت تلك البسمة التي كانت تقابله بها ، تتلاشى شيئًا فشيئًا ، وصارت كل هفوة (أيّاً كان فاعلها) تنسبها إليه ، وهو صابرٌ لا يتبرّم ومُتحمِّلٌ لا يتضجّر ، حتى لا يُلحق بأبيه ضررًا ، أو يسمعه عنه ما يُنَغِّصه .

وفي يوم كان محمود على وعد من ثُلَّة من أصدقائه ، للذهاب للتنزُّه بين المزارع ، ووعدهم على الإتيان بعربة والده ؛ يركبونها في تلك النزهة ؛ حتى لا يُضنيهم السير على الأقدام ! ولكن تشاء هي عمدًا أن تُظهر أمام أصدقائه ضعفه وعدم اكتراث أحد به في المنزل ، فصبرت حتى قبيل حضور (البك) بقليل، بدأت مناوشتها :

زوجة الأب : إلى أين ستذهب بالعربة ، وأنا في حاجة إليها ؛ إذ سأذهب للنزهة مع بعض صديقاتي .

محمود : أمّاه ، ولِمَ لَم تخبريني قبل ذلك ! حتى أكون على علم ، فلا أعد أصدقائي بالذهاب منهم للتنزُّه بها ؟!

زوجة الأب : ما هذا ؟ ماذا تقول ؟! تُفضِّل نفسك وأصدقاءك عليَّ ؟! ... لا يا محمود ، فأنت لم تعد كما كنت ... أهكذا كنت تقول لأمك ؟ أم أنا المخصوصة بهذه الإجابة ؟

ثم أجابت على نفسها :

مجنونة أنت ! أتُعدّين نفسك مثل أمه ، وأنت النزيلة الثقيلة ! ... نعم ثقيلة عليهم جميعًا ؛ إذ لو لم تكوني كذلك لحافظ سيد البيت على حقوق الزَّوْجِيّة الواجبة ، حتى يجعل لكل أحدٍ حدًّا في الكلام ، ولكن ليس الذنب ذنبهم ، لا الأب ولا الابن ، إنما أنت المذنبة في حق نفسك، حين سمحت لروحك أن تتطفّل على رجل لا يحبك ، ولا يُفكِّر في راحتك ، كما يفعل كل زوج .

قالت هذا ورفعت في صوتها حينما أحسّت من حركة الخدم بحضور (البك)، حتى يسمع كل شيء ولتقوم بتمثيل دورها على وجهه المنشود . وأظهرت خجلاً وتأسُّفًا حينما وقعت عينها على عينه . وكأنما تتمنى ألّا لا يكون (البك) قد سمع شيئًا من حديثهما . وقابلته بالتحية كالعادة ، والابتسامة على شفتيها ظاهرها ابتسامة التحية وأما باطنها فإنما هي ابتسامة الانتصار ؛ فقد تأكدت من نظرات (البك) أنه قد سمع كل النقاش .

قال البك ، وقد ظن أنها أرادت بهذا أن لا يعلم بشيء البتّة ؛ محافظة على راحته : ماذا هنالك ... أحدث جديد ؟ من أي ناحية ؟ هدى ، ماذا حدث ؟ أخبريني بحقيقة الأمر .

فأظهرت استياءها وأنها لا تريد الكلام ، ثم بدأت تقصّ عليه قصّتها المُلفّقة ، وكلما هَمّ (محمود) بالدفاع ، تحيّنت الفرصة للانتقام ونهرته قائلة : لا تتكلم حتى أُتمَّ حديثي .

وما أن انتهت القصة ، حتى أتبعتها بقولها : ولكني قد عفوت عنه ، وغفرت له هذا الذنب ، كما أرجو ألا يتكرر هذا .

ثم يلتفت البك إلى ابنه الذي لم يقدر على النطق من شِدَّة الاختناق، قائلاً : محمود ، يجب أن تكون هذه أول شكوى منك وآخرها ... لا تعد لمعاكسة زوجتي ، فأنت لست بالصغير الذي يُعفى عن هفواته وإلّا فلن يحدث إلّا ما يُغضبك فهمت !... وأنت يا هدى ، كل شيء يحدث في القصر يجب أن أعلم به ، هذه أمانة في عنقك ، فحافظي عليها محافظتك على حقوقي... هيا إلى حجرتنا.

فنهضت واقفة وقد سدّدت سهمًا من عينيها ، ضربته نحو محمود يقول له : هذا فتح باب الانتقام والكيد ، ألم تسمع « ﴿ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾ » !! وسارت بجانبه فرحة مرحة ...".

****

– ٦ –

وانتقل الكاتب ، واصفًا تبدُّل حال (محمود) ، من حياة النعيم والسعادة ، إلى المعاناة والشقاء ، على يد تلك المرأة الماكرة ، في قوله (١٢) :

" ظلّ محمود جالسًا في مكانه ، حتى ظهرت على الشاشة البيضاء (نهاية الفيلم) ، وقد تضاربت الأفكار في رأسه ، حتى رجعت سنوات وسنوات إلى الماضي ، فتذكّر أيام كانت أمه على قيد الحياة ، لم يكن مثل هذا ليحدث مطلقًا ! شكواي إليك يا رب فأنت أعلم بالظالم والمظلوم .

من عهد هذه الحادثة لم تجعل الزوجة لحظة تمرّ بها ، إلّا وأشغلت فكرها لتُهيّئ له فخًّا تقذف به فيه ، وتنصب له شَركًا تُوقعه فيه . حتى بدّلت حياته المنعَّمة إلى جحيم مستعر ... لك الله يا محمود ، فلن يُنقذك من هذه الكارثة سواه ! " .

****

– ٧ –

ويتابع الكاتب سرده الحكائي ، مُصوِّرًا أثر تلك المرأة الماكرة في تدهور العلاقة بين الأب وابنه ، ومجسِّدًا مدى تماسُك الابن حيال ما تفتعله من أزمات ؛ دفاعًا عن علاقته بأبيه ، وواصفًا سعيها الدائم وتكرارها المحاولة مع ابن زوجها للإيقاع به والاستجابة لرغبتها ، ومُجسِّمًا مدى ضعف الزوج وخضوعه لها ، ووقوعه في حبائلها : (١٣)

" بدأت الحياة في تطوُّر غريب ؛ بين الأب وابنه ، بسبب ذلك الدخيل الحديث ، وكذا بدأت العلاقات الأبوية تتدهور من ذلك الحين ، غير أن الابن البريء من كل ما يُقذف به ظلمًا ، كان إذا ثارت العاصفة واقتلعت كل راسخ من أصله ، تلقّاها بثبات ورباطة جأش ، فإذا ما اشتدّ هيجانها ، أرخى لها الحبل ، حتى لا ينقطع سبب المودة بينه وبين والده .

كان يعرف حق المعرفة أنه أمام عدوّ لدود ، قوي السلاح حديثه ، وكذا يعلم أن كل ما يُغضب الزوجة يغضبه ؛ فصار يتفانى في فعل ما يُرضيها مهما كلّفه ذلك من غالي الثمن، ما دام الطريق إليه شريفًا .

غير أن هذا ممّا كان يتسبّب في إثارتها وحقدها عليه ؛ فهي لا تريد ذلك ! إنّ كل ما تريده هي : إمّا أن يرضخ لمصاحبتها في إنشاء مجزرة أخلاقية ، بنفس راضية ، وإمّا أن يفارقها ...

رأت شدّة تَحفُّظه ، وبعده عن كل هفوة تؤذيها ، ورأت أن حبّات البُغض التي بذرتها في قلب الوالد الحنون بدأت تُثمر ، إذ رأت منه انقيادًا لها لم تعهده من قبل !

إذن يجب أن تبدأ في العمل ... !

أخذت تَعدُّ عدتها ، وتُطَرّز في الشَّرَك بخيوط لا تفلّ ، حتى لا يجد منه منفذًا للهرب والفرار . ثم بعد ذلك تتحيّن الفرصة ، لتصنع هذا الثوب الجميل فوق جسمه ، لتضحك كثيرًا حينما تراه لا يقدر أن يأتي بحركة " .

****

– ٨ –

ومن عباراته الوصفية لما عليه زوجة الأب وابن الزوج ، إلى هذا الحوار الذي أداره الكاتب بينهما، مازجًا أيضًا بعباراته الوصفية (١٤) :

" جاءت في يوم وقد اشتد وجيب قلبها ونداء نفسها وظمأ روحها ، تُكَرِّر عرضها عليه علّه يرجع عن تَمسُّكه :

محمود ، هل لك في عفو أبدي– ولكن بعد أن تلبِّي ندائي الذي هو أحبّ شيء لدي؟ هل لك في رضائي عنك وتأتي لتروي هذا الظمأ الذي كاد يحرق قلبي ؟ راجع نفسك تجدك على خطأ في سلوكك هذا الطريق الشائك ! ألم يفعل ذلك من قبلك كثير من الأبناء مع كثير من الزوجات ؟! لماذا تتمَّسك بهذا الرأي ، وإلى متى يا ترى ؟!

محمود ، أنا أعلم أن لا طاقة لك على تحمَّل غضبي ، فارضخ لأمري ، ولبِّ دعواي قبل أن أبدأ في استعمال السلاح الجديد .

هيّا .. هيّا ، إن كنت عاقلاً أنقذ نفسك ممّا سيحيق بك ، فأشدّ ما أخاف على ذلك الشباب الغضّ!

محمود ، إنك الآن تقبر نفسك بيدك ، وهأنذا أقوم لآخر مَرَّة بنُصحك على عدم المغالاة في تمسُّكك بهذا الموقف ولن يحدث مني ثانيًا فراجع نفسك ، قبل أن أبدأ في تنفيذ خُطَّتي !

ماذا قلت ؟

تنهّد محمود ، وأرسل شهقة كادت تذهب بروحه ، وأعقبها بآهة كادت تصعق بذلك القلب المكلوم ، المتلظّي في نار الظلم والاستبداد ، وبدأ يتكلم بصوت مختنق ، ونفس مضطربة، قائلاً :

زوجة أبي الجالسة على عرش أمي ، تكلّمت الآن وتظاهرت بأنك من صالحي مع أن باطنك البلاء ، قُلتِ بأنني بعصياني لأمرك هذا ألقي بنفسي في وهدة لا مُنقذ منها !! لتعلمي أن تلك الوهدة ، هي أحب شيء لديّ من الإقدام على تلك الفعلة الشنيعة ، إنك الآن في انتظار جوابي على طلبتك ، واعلمي أنه لن ينقص عن جواب يوسف لامرأة العزيز حين قالت له – بعد أن غلّقت الأبواب لتستتر عن أعين الخلق ، تاركة عين الله التي لا تغفل ترقبها– : « ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ » .

انظري جوابه عليها فهو جوابي عليك : « ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾» ، أقولها وأيم الحق ، قرير العين ، مطمئن النفس ، راضي الضمير ، عاصيك بعد أن تفانيت في رضاك ... ثم بعد ذلك افعلي معي ما أردت ، فمهما بلغت معي من تشديد في العذاب ، وتضييق في الخناق، فلن يزيد على كونه تألُّم في الجسم الفاني كل ذلك خير لي من أن يلحقني عذابٌ أشد فتكًا وأصعب مِراسًا ؛ لو أقدمت على رضاك فسيلحقني عذابان : تأنيب الضمير في الحياة ، فإذا ما فنيت انتقلت من عالم الجريمة لنتقابل في الجحيم ... لا ، لن أفعل شيئًا مما ذكرت ، فهيّا عجّلي بالانتقام ولن أقول لك إلّا ما قال ابن أدم لأخيه : « ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾» ، هيّا افعلي ما شئت ، فلن يردّك عن غيّك إلّا الله ، العالم الغيب ، الشديد البطش ، القوي العزيز .

قال ذلك ، ثم أخلد للسكون ، وقلبه يعلو ويهبط لشدّة انفعاله واضطرابه ، فنظرت إليه بتحدٍ قائله : يا لك من خطيب مُفوَّه وكاتب قدير ، غير أنك سبحت في عالم الخيال ، فتكلَّمت كثيرًا ، وسؤالي لا يتطلَّب كل هذا التعب ، كان يكفيك أن تقول:لا !

ثم استأنفت تقول : وأيضًا أما هذا ردُّك ، فتأهَّب من الآن واستعدّ لملاقاة الخَطْب بقلب ثابت كما كان عند جوابك ، استعدّ لذلك وقد يكون مبدؤه وقت الظهيرة ...

خرجت من عنده مُيمِّمة شطر حجرتها لتقوم (ببروفة) الرواية الجديدة- تأليفها- التي ستعرضها أمام الزوج السعيد الشقي !

جلست أمام المرآة ، لترى مقدار نجاحها في حقِّها من البطولة- في تلك التمثيلية- التي سيكون الحقُّ مسرحها ، تطؤه البطلة بأقدامها ، ثم إذا هي تتكلَّم فيخرج الباطل متصاعدًا نحو السماء ، ويرتفع إلى أجواء الفضاء ... تلك التمثيلية التي سيذهب ضحيتها الحق ، وصديقه (محمود) الشريف ، ابن سعادة البك الشهواني الدني " .

****

- ٩ -

ومن هذا الحوار بين (محمود) ، وبين زوجة أبيه ، وتلك المواجهة الكاشفة ما تُبَيِّنه تلك المرأة من الانتقام ... ينقلنا الكاتب إلى حوار آخر بين الزوج وبين زوجه ، كاشفًا براعة تلك الزوجة في الكذب والتلفيق حيال زوجها المخدوع(١٥) :

" مضى على تلك المشادة ما يقرب من الساعة والنصف ، حتى عاد الزوج من الخارج ، عاد لتقابله الممثلة الكبيرة بوجه عابس وجبهة يعلوها الحزن والكآبة ... دارت رأسه عند مشاهدة هذا

المنظر حتى كاد يسقط مغشيًّا عليه ولكنه تحامل على نفسه ، وقال لها : ماذا هنالك؟! ... فلم تتكلَّم وزادت في وجهها عبوسًا .

هدى ، ماذا حدث ؟! وبدون جدوى ! فازداد تشوُّقًا لمعرفة الحقيقة . ثم قال : هدى ، ناشدتك الله أخبريني ، مَن المعتدي على تلك البسمة اللطيفة حتى محاها ؟ من المعتدي على ذلك الوجه الباش حتى أحزنه ؟ أقسمت عليك إلّا ما قلت .

فقالت بصوت خافت : إلى الداخل فلا يجوز اطلاع الخدم على ذلك السبب .

فرافقها إلى حجرتها ، مُتلهِّفًا على الاطلاع على ذلك السِّر ، الذي تأبى الكلام فيه إلّا في خلوة ، وما إن احتوتها الحجرة حتى بدأها بالكلام متعجِّلاً الوقوف على ذلك المجهول : هيّا قُصِّي ما حدث !

قامت من مكانها ، قائلة : سَيِّدي البك اعلم بأنه لم يعد يرضيني المقام في ذلك المنزل مع هذا الولد العاق الذي انتهك حرمتي وحرمتك ، ثم اعلم بأن هذا آخر إنذار لي في هذا الكلام .

محمد بك : هدى : كلامك غامض ! افصحي عما تكنّه نفسك ، تكلّمي ... بالله تكلَّمي !

هدى : إني أخاف إن تكلَّمت ، أن تنزل علينا صاعقة من السماء ، أو ينهال علينا ذاك القصر ، بسبب ذلك الحادث الذي لم أكن أنتظره ! ولكن سأخبرك بحقيقته .

بينما أنا جالسة من أسبوع تقريبًا فاجأني ابنك بقول أدهشني : أمّاه إني أُحبك ، أحبك من كل قلبي ، كان أوّل ظني أنه ذلك الشعور الذي يُحسُّه الابن نحو أمه ، ولكن سرعان ما تبخَّر هذا الظنّ وانمحى ؛ حتى استأنف يقول : نعم أُحبك . لا كَحُبِّي لأمي ، ولكن كحبي لفتاة جميلة ... أُحبك هكذا ... وأخرجته من حجرتي ، وتوعَّدته : إن لم تمتنع عن هذا فسوف أخبر والدك ، فتركني وخرج مسرعًا ، بعد أن أودع هنا– وأشارت إلى عينيها– تلك النظرة الضعيفة، التي تخرج من عين المخطئ ، يطلب فيها الصفح ؛ ولذلك كتمت عنك الخبر ولم أشأ أن أتكلَّم ، خوفًا على تشتيت تلك الأسرة التي كانت منذ وقت ترفرف عليها راية السعادة ويخفق فوقها علم الحب والإخلاص !

ولكن حدث ثانيًا ما اضطرني إلى التكلُّم إليك ، فبينما أنا خارجة من الحمام ، وقد تهدّل الشعر فوق كتفي ، وكنت ألبس غلالة رقيقة ، إذا به يفاجئني لثاني مرّة على غير عادته ، وبدون كلام مد يده وضمَّني إلى صدره ؛ فجاهدته كثيرًا حتى هربت من بين يديه ، وذهبت إلى حجرتي ، وأنا انتفض كعار ينتفض من شدة البرد : كيف يجرؤ هذا الوغد على إتيان تلك الفعلة الشنعاء ؟! إذا كان هذا فعله معي فكيف به مع غيري ؟! ظللت أبكي حينما ذكرت ذلك إلى قبيل حضورك بفترة وجيزة.!

هذا كل ما حدث يا سيدي ، ولكن لي رجاء ، لا تمسّه بسوء ، بل خاطبه في الكفِّ عن مثل هذا .

أرادت بهذه الكلمة ، أن يفهم عنها حُبَّها لاجتماع تلك الأسرة الصغيرة ، وأنها لا تريد التفرقة مع عليها بأن شيئا من ذلك لن يحدث ! .

محمد بك : هدى ، ماذا تقولين ! لن يكون جزاء هذا الكلب الدنس إلّا الطرد والتشريد... " .

****

- ١٠ -

ويتابع الكاتب سرده هذا المشهد المثير ، ناسجًا حوارًا- جديدًا- انفعاليًّا بين الأب الثائر المخدوع ، وبين ابنه المظلوم ، مُسْتَهِلاً بعباراته الوصفية الكاشفة شدّة غضب الأب(١٦) :

" ثم قام من عندها وسار إليه ، والغضب باد في وجهه . وصل (البك) حيث محمود ، والشَّرر يتطاير من عينيه ، قائلاً : ألا زلت هنا تجلس في بيت من قمت بخيانته يا خائن ؟ أهكذا لقنت في الأزهر كيف تكون وحشًا ضاريًا ؟ هيا يا مطيَّة الشهوة ، اخرج من بيتي يا عدو الله ، وعدو نفسه ، اخرج !

محمود (مندهشًا) : أبي . أ ...

محمد بك : كُفّ عن الكلام ، لست أباك ... لا تتفوّه بذاك ثانية ، وإلّا أنزلت بك بطشي . هيا لا تَمْكُث بعد الآن هنا لحظة واحدة .

محمود : أبي ... أبي ، ماذا هناك ... ؟!

محمد بك : أمرتك بالكفّ عن ذلك ، يا كلب ، لست أباك .. لست أباك !

محمود : إذن .. زوج أمي ؟! زوج أمي .. ماذا حدث ؟ أخبرني لِمَ كل هذا ؟!.

محمد بك : سل نفسك ولكن بعد أن تخرج من هنا: لا تمكُث دقيقة واحدة ..اخرج !

محمود . يا الله ... ماذا هنالك ؟!

قالها ، ووضع كفَّيْه فوق وجهه ، كأن أمامه شيئًا يرعبه ، وجعل يبكي وينشج و... و...

ربّاه عفوك ماذا فعلت ؟ .. ألهمني الجواب .. آه .. أبي ! .. أبي لن يفعل مثل ذلك مهما بلغت شدة ذنبي . يُخرجني من البيت طريدًا ! هذا ما لم يكن في الحسبان . ! نعم فهذا لم يخطر لي، ولا لأي إنسان في يوم من الأيام ! إذن ماذا أصابه ؟ أمريضًا يكون ؟!

أبي ، تُب إلى رشدك ، وتروّ فيما تُقدم عليه الآن ، إنك تفعل كل هذا ، وتتركني طريدًا شريدًا ، بدون أي ذنب أعلم حدوثه مني ! ألست وحيدك الذي من أجله بكيت زوجتك كثيرًا! أَنظرني يا أبي .. أَنظرني ؛ حتى أعلم سبب طردي ! .

محمد بك : أمرتك بالخروج فما أبقاك ! وأمرتك بالصمت فما زلت تُصرصر! .. أتظن أنك ستخدعني، وتؤثر عليّ بكلماتك هذي ، لا تظن ذلك ،اخرج ... " .

****

- ١١ -

ويختم الكاتب هذه المواجهة، واصفًا حالة محمود ؛ المظلوم الكسير الحزين البائس... في قوله[١٧]:

" أرسل محمود أهة تُفَتِّت كبد سامعها ، ثم صَوَّب إلى أبيه نظرة من عين حزينة دامعة، تقول له : مظلومٌ ... مظلومٌ ، وسوف ترى ، ليقتص الله منك ومن زوجتك ، ثم خرج من البيت ، لا كعادته تُشَيِّعه أنظار الوداع وألسنة الدعاء ، بل تُشَيِّعه أنظار الكراهية والبغض وألسنة السبّ واللعن .

خرج من البيت كسير القلب ، دامي الفؤاد ، حزين النفس ، لا يحمل معه سوى ملبسه الذي يرتديه . خرج لا أحد يدري به ولا هو يدري لأي الأسباب خرج ! خرج من الباب لا يدري إلى أين يذهب ، ولا ماذا يفعل ؟! وكلما تذكّر ما حدث من والده ، وكيف تبرأ منه بكى وازدادت حيرته " .

****

- ١٢ -

ويتابع الكاتب تسلسل الأحداث ، مشيرًا إلى موقف (المُربِّية) ، ومُصَوِّرًا تَشَرُّد (محمود) وحزنه وحيرته واستغاثته بالخالق عزّ وجلّ ... وذلك قوله ، معتمدًا على السرد الوصفي، والحوار بنوعية ؛ الخارجي والنفسي ، ومتابعًا عنصري (الزمان) و(المكان)[١٨] :

" مضى على ذلك الحادث اليوم بأكمله ، والخدم في شغل شاغل عن غيابه فجأة ، ولا أحد يقدر على الاستفهام، إلى أن ضاقت (مُربِّيته) بهذه الحادثة : خرج ولا أحد يعلم بمكانه كيف ذلك ؟ وتشجّعت قليلاً ، وعندما خرج (البك) ، ذهبت إلى سَيِّدتها مستفهمة : إن الأستاذ محمود مضى عليه حوالي اليومين غائبًا ، ولا ندري كيف خرج ، ولا أين ذهب ... أتدرون مكانه حتى نطمئن على غيابه ؟

هدى (ضاحكة) : محمود ، تاقت نفوسكم لرؤيته إلى درجة السؤال عليه ؟ إنه لن يعود... لن يعود مطلقًا ، ها .. ها .

(سمعت كل هذا فخرجت لا تلوي على شيء ؛ لقد فهمت كل شيء ، وهي المُحَنَّكة المُجرّبة ، لقد فهمت أن هناك مكيدة دبَّرتها تلك المرأة اللعوب كان هو ضحيّتها .

خرج محمود وقتها ، اتّقاء للشرّ فذهب إلى إحدى الحدائق ، وأخذ يتريَّض ويتنقَّل إلى أن أخذت الشمس في المغيب ، فذهب في الطريق الذي سيمُرّ منه والده عند أوبته ، وجلس على مقعد هناك علّه حين يراه يراجع نفسه ويصحبه معه إلى المنزل ، ولكن ذهب ظنُّه هباء ، بل لقد ازدادت نفسه تأثُّرًا فقد مرَّ عليه وكأن ليس هناك أحد ، نظر إليه شزرًا ثم أشاح عنه بوجهه .

محمود : يا الله ! ماذا حدث مني ؟! ولكنه لم يتمالك نفسه فيجري خلفه .. أبي .. أبي ، أترضى أن أبيت هكذا ! أبي أخبرني بحقيقة الحادث ، فإن كنت مُذنبًا فافعل ما شئت ، وإلّا فربما من

أبلغك عني سوءًا أراد من ورائها التفرقة ، آه أبي ، أتتركني وتمشي! انتظرني حتى ألحقك !!
ولكن بدون جدوى ، رجع خائبًا متسائلاً ، والدمع جار فوق خدَّيْه كأنه قاع نهر جرت المياه فيه : ربّ أين أبيت الليلة ! أنت أدري بي من نفسي ، وأجهش في البكاء إلى أن بلّل الدمع رداءه وأثقل الفكر رأسه ، فراح يغطّ في نوم مفاجئ .
كان الظنّ أن في نومه هذا راحة لبدنه من إنهاكه بتلك الأحداث الجسام ، ولكن أين؟ وهي لن تتركه حتى تقضي عليه ، في يقظته وفي نومه .
أيقظه في الصّباح لذع الشمس فنهض واقفًا ، وقد أحسّ بالدمع مُتجمّدًا على مقلتيه، فغسل وجهه ويديه ، ثم أدّى فريضة الصبح ، وبعدها ناخ عليه الفكر بكلاكله :
أين أذهب ؟! ربّاه وفّقنى إلى طريق مستقيم ، فامتطيه .. رَبّ اهدني إلى مكان حسن، أتلقّى فيه رضاك ، وأصلح قلب والدي عليّ ... ربّ اليوم أدعوك بدعوة عبدك ورسولك موسى « ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ » ، فاهدني يا رب كما هديته ، إنك على ما تشاء قدير " .

****

- ١٣ -

ثم انتقل الكاتب ، مُبَيِّنًا دور (المُرَبِّية) في التخفيف عن (محمود) من أثر تلك المحنة...في قوله (١٩) :
" رأت المربية ما لحقه من أذى وما سيلحقه ، فقالت في نفسها : يجب أن أسارع في البحث عليه حتى أفي بحقّ حضانتي . وبينا هي تتنقل من مكان إلى آخر، تُفكِّر كيف تبدأ بحثها ، ساقتها قدماها إلى تلك الحديقة ، فرأته هناك جالسًا ... يا لها من بشرى حزينة ، وفرحة بائسة!!
جرت إليه مسرعة ، وجثت أمام ركبتيه : ولدي .. ولدي ! هذا أنت ! ناشدتك بالله أصدقني ، ماذا حدث ؟! قُصّ عليَّ الحقيقة كما وقعت .
فجعل يسرد لها حكايته باللسان والدمع ينهمر من عينيه ، وكيف جاء والده يشتمه ويطرده بدون ما سبب يوجب ذلك ، وكيف تربَّص بالأمس في هذا المكان لحين أوبته ، وجرى وراءه يطلب الصفح عن ذنبه المجهول ، وكيف أشاح عنه بوجهه ، كأنه جرثومة مُعدية ... إلخ ذلك !
فقالت تُطمئنه : لا تخف شيئًا ، وإني سوف أُعِدُّ لَك منزلاً تأوي إليه هذه المُدّة ، إلى أن يأتي العفو من لدى الحكيم العليم .
ثم ذهبت إلى أحد أقربائها ، واستأجرت له حجرة دفعت أجرها من نقودها ، ثم أعطته ما تبقّى معها، وكان يبلغ خمسة جنيهات ، لينفق منها على نفسه ، وتركته عائدة إلى منزل سيّدها ، خوف افتضاح أمرها فتُطرد هي الأخرى ... ".

****

- ١٤ -

ويسترسل الكاتب في سرده الحدث ، متابعًا مرور (الزمن) ، ومصوّرًا أثر خطاب الابن في نفس أبيه ، وكاشفًا حياة زوجة أبيه الماكرة في إجهاض هذا الأثر ... وذلك قوله، معتمدًا على الوصف والحوار ، ومتابعًا حركة (الزمن) [٢٠] :

" مضى على ذلك ثلاثة أيام ، انتظر محمود خلالها تغييرًا في الموقف ، فلم يطرأ عليه أي تغيير ، فكتب إلى والده يستعطفه ...

وصل الخطاب إلى يديه ، وحينما أتى عليه تملَّك شعوره التأثُّر من كلام ولده ، وبدأ الشكّ يخالج نفسه ، ربما يكون مظلومًا حقيقة ... وبينما هو في هذا التفكير قطعه عليه حضور زوجته ، التي لم تقف أمام هذا ساكتة ، بل وقفت تقول : فيم تفكر ، ماذا يحمل هذا الخطاب ، الذي جعلك تخلد إلى السكون هكذا ؟ فناولها إيّاه . وما هي إلّا لحظة حتى وقفت على جليّة الخبر ، لقد بدأت الحيلة تذهب شعاعًا ؛ حيث تداركت الموقف ، وقالت : سَيِّدي ، إني لا زلت أجهل سبب تفكيرك ! ما معنى هذا ؟! أتشكّ في قولي ! ليس هناك غير ذلك ! ...

الزوج : لا يا عزيزتي ، ليس هذا ما رميت إليه ، كل ما حدث أني تأثَّرت على ما بدر منه حتى كان مآله ذلك .

وهنا تبسَّمت بسمة الذئب للشاة ، ثم طبعت على جبهته قبلة أجابها ببسمة وادعة ، أعقبها عناق طويل ، أذهبت به من فكره كُلَّ شكٍّ وشُبهة ... ".

****

- ١٥ -

ومن حيلة زوجة الأب والتفافها حول عقل زوجها ، ينقلنا الكاتب إلى حال الابن ؛ حيث انتظر ردًّا من أبيه على خطابه ، دون جدوى ؛ فأرسل إليه خطابًا استعطافيًّا آخر[٢١]... ولكن هيهات .. هيهات ! مما اضطره إلى أن يكتب إلى زوجة أبيه ، لعلّها تعطف قلبه على ابنه ، ومُصوّرًا اندهاش تلك المرأة من غفلة (محمود) عن سبب ما حدث له ، ومبينًا مَكْرها في ردِّها عليه ... حيث يقول ، مُستهِلاً بـ (حديث النفس) :[٢٢]

" فكأنما هو ذئبٌ عوى في فلاة ، فلم يشأ أحد أن يجيبه ، ولن يشاء... إذن فماذا أفعل؟! وها قد طرقتُ بابه مرتين ولا مجيب ، حتى مللت كل شيء ، ولكن لا زال هناك أمل ، فللمنزل بابٌ آخر يجب طرقه ... أكتب إليها علّها تقدر على تحريك فكره ، وإدارة رأسه نحوي !

أمي زوجة أبي ، أكتب إليك هذا ، وربما لا تعلمين ما أصابني بحيث لا أدري له سببًا ، وقد

أرسلت إلى والدي خطابين ، ولكن بدون جدوى ، وعلى حين غفلة وجدتني أمام اليأس وجهًا لوجه ، ولكنني تذكّرت شيئًا لا يزال يلمع أمام ناظري في ذلك الأفق البعيد ، فكتبت إليك هذا ؛ علّك تترأّفين بي ، وتُشفقين عليَّ ! والله أرجو أن أجدك ماء ولا تكوني حينما يصلك خطابي سرابًا . !
والسلام من ولد أضناه التشريد ، وأسهره التفكير في ذلك الذنب الذي لا أدري كنهه إلى الآن ! ...
محمود

جلست تضحك وتقهقه ، وتقول : يا لك من جبان مسكين ! ألازلت تجهل الحقيقة، حتى أرسلت إلى من افترسك تدعوه إلى استقاءتك من بطنه ثانيًا ! محال .. محال، أن يكون عقله باقيًا في رأسه ، أرسل يستنجدني ؟! ما أسرع نسيانه كالطفل الرضيع !

ثم طوته في ثيابها ، وجلست تكتب له جوابًا على كتابه ، أظهرت له فيه فرحها في طرده خارج المنزل ، ومن طرف خفي ذكّرته بوعيدها له ؛ بحيث يتسنّى لها إذا وقع في يد زوجها ، أن تذهب بالكلمات إلى المعنى الذي تريد :

محمود ، المذنب الآثم ، أرسلت لي– متجاهلاً ذنبك ، متناسيًا كل ما حدث – ترجوني أن أشفع لك عند والدك_.

محمود ، تأكدت حقيقة ، حينما أيقنت على ما حواه الخطاب أن بك مسًّا لا محالة في ذلك ؛ أنسيت يوم جلست عندي في الحجرة ، وجعلت أحذِّرك من كل ما سيحدث ، بسبب إقدامك على هذه الجريمة ؟!

محمود ، أنسيت يوم قلت لك : أنك بفعلتك هذه ، إنما تقذف بنفسك من شامخ جبل إلى قاع هُوّة عميقة ؟!

محمود ، أنسيت إصرارك على عنادي ، وتماديك في الإجرام ؟! أبعد ذلك ترجوني أن أكون أداة خير بينك وبين والدك !

محمود ، تيقّظ لنفسك ، واندم على فعلتك ما شئت أن تندم ،،،

زوج أبيك ، الثائرة على عصيانك لها ... "

****

– ١٦ –

ثم أخذ الكاتب يُصَوِّر اندهاش (محمود) من حقيقة أمر زوجة أبيه الآثمة ، مبينًا ارتياحه بعد أن عرف السبب الذي كان وراء انقلاب أبيه عليه ... حيث يقول في (حديث النفس) [٢٣] :

" هدى ... آه يا لك من خائنة غادرة ، أهكذا دبَّرت لي هذا الشَّرَك ! وبهذه السهولة أوقعتني وأبي فيه ، ماكرة ... ما كرة آثمة ، لتعاقبين على ذلك يوم تُعرض الأعمال على الله ، ولتندمين حيث لا

ينفع الندم ، أحمدك ربي ، هأنت حققْت أحد مطلبي ، فعرفت ذنبي ...

ربّاه ، دبِّرني في أمري ، ويَسِّر كل مُعسر ، فهذا لا يرضيك أبدًا . ربّاه ، إني بريءٌ كما تعلم، فلا تقطعني عن الاستمرار في التعليم ، إنك على ما تشاء قدير " .

****

وهنا يجب الإشارة إلى أنه ما كان ينبغي على الكاتب تصوير شخصية (محمود) بهذه السَّذاجة التي أغفلته عن مكر زوجة أبيه وانحلالها ودورها في انقلاب أبيه عليه ؛ حيث أنها راودته عن نفسه وحاولت الإيقاع به– أكثر من مرة– للاستجابة لرغبتها ، وتوعَّدته بالشرّ إذا لم يستجب ، على ما مَرَّ بنا من مواقف ومشاهد .. ! فكيف نسي محمود كل ذلك؟! بل إنه أخذ يستنجد بزوجة أبيه ، مما جعله موضع استهزائها !

****

– ١٧ –

وبعيدًا عن هذه السَّذاجة المفتعلة ، عاود الكاتب إبرازه دور (المُربِّية) الفاضلة في وقوفها بجوار (محمود) في محنته ، مصوّرًا أثر ذلك في نفسه ... وذلك قوله (٢٤):

" لم يُغلق فمه مما قال ، حتى كانت المربِّيَـة أمامه ، تَبْسَم في حنوٍ وتقول : لبيك .. لبيك ولدي ، خذها هي النقود ، خذها وأنفق منها ما احتجت إليه ، وكلما تجمَّع شيء عندي أرسلته لك ، فكن مطمئنًا من هذه الناحية .

كانت هذه المفاجأة أشدّ وقعًا على نفسه من مفاجأته يوم طُرد ؛ إذ لم يفكر في مثل ذلك أبدًا، ثم تناول يدها وجعل يلثمها شاكرًا لها ذلك الكرم .

ومن فوره قام للسفر إلى القاهرة ، فودّعته وودّعها بنظرات من عينه المُمطرة ، ثم سار في طريقه نحو المحطة ، ذلك الطريق الطويل ، الذي كان يقطعه من مدة وجيزة راكبًا عربة ... يا لها من أيام تمرّ وحوادث تُرعب ؛ جعل يستعرض ذلك كله وهو سائر في طريقه ، حتى وصل إلى المحطة فوقف ينتظر مجيء القطار متسائلاً : كم من النقود ترى معي ، فانزوى في جانب ، وجعل يعدّها ١، ٢، ٣، ١٠، ١٥ ... يا لها من وفيَّة حقًّا خمسة عشر جنيها ، يجب أن أسير على نُظمٍ وخطط دقيقة حتى تكفيني مؤونة وسكنًا .

وهنا وصل القطار ، وبدون أن يشعر وجد القطار توقّف ، فنظر من النافذة ليرى القاهرة أمامه . نزل من القطار ، ولم يتمهّل قليلاً حتى لا يضيع وقته سُدًى ، بل ذهب لوقته فاستأجر غرفة توافق حالته المالية ، غرفة ضيّقة فوق سطح أحد المنازل ، ثم اشترى فرشًا وغير ذلك مما لابدّ منه .

وهكذا قضى عامة بعيدًا عن والده وزوجه وما يحدث بينهم ، يُنفق مما ادّخرته له مُربِّيته على

نفسه، فإذا ما انتهى الدرس ، وخرج الطلاب من دار التدريس ، ذهب هو– بعد تناول لقيمات يَسدُّ بها حاجته– إلى الجامع الأزهر تصحبه كتبه ، ليستذكر ما تلقّاه من أساتذته طوال اليوم ، حتى لا تفوته الفرصة السانحة ، خاصّة بعد أن أصبح له أعداء يفرحون لحزنه ، ويسَرُّون لضُرِّه ".

****

– ١٨ –

وتتوالى الأحداث ... وينقلنا الكاتب إلى منعطف جديد في هذا البناء السردي ؛ حيث أخذ يصف شخصية (فتحي بك) ؛ الرجل الثريّ المتديِّن المحسن ، صاحب القصور والحدائق ... في قوله ، معتمدًا على (المفارقة التصويرية) بينه وبين شخصية (محمد بك) [٢٥] :

" في بلدة (...) تقطن أسرة فتحي بك ، تلك الأسرة الثريّةِ ، التي لا تكاد تنقص عن محمد بك شيئًا؛ فهناك أموال طائلة ، وقصور شامخة ، وحدائق زاهرة ، وأعمال فاضلة ؛ طاعة وخضوع للأحكام السماوية ، وإنفاق الأموال ، وإطعام الفقراء ، لم يترك فضيلة إلَّا عملها ، غاليًا أو رخيصًا .

بل تزيد هذه الأسرة أن أعمالها دائمة لا انفصام لها ولا انقطاع ؛ فهو قائد نفسه ، قائد بيته ، ليس لسيِّدة عليه من رأي ، إلّا إذا كان صالحًا .

على هذا النمط نشأت ذُرّيته ، فلا زينة للفتاة ، ولا سفور ولا فجور؛ حيث تضجع الفضيلة فتُنحر بسكين بارد في بيوت مثله من الأغنياء .

لم يكن عند هذا شيء من ذلك ، بل هناك تاج صاغه من أثمن المعادن وأنضى الدُّرر، ألا وهو تاج الانقياد لأحكام الشريعة والتمسك بآدابها .

هذه صورة مصغَّرة لما اشتمل عليه فتحي بك وقصره ، الذي كان يتيه على القصور أجمع ؛ لما حوى من الجمال والكمال ... " .

****

– ١٩ –

ثم أخذ يصف شخصية (هدى) ابنة (فتحي بك) ، ذات الجمال المادي والخُلقي ... قائلاً[٢٦] :

" هكذا كانت تعيش تلك الأسرة الكريمة ، وقد أنجب فتحي بك فتاة رائعة الجمال، مهذبة الأخلاق ؛ ذات أنوثة جذّابة ، ونظرات خلاّبة ، فكأنما قطع الجمال الصريح منها بل هي تفوقه ؛ إذ هناك إتقان عبادة لا إتقان زينة ، فالصلاة عندها سدّت فراغ تَزَيُّنها ، وأبواب الإحسان منها قد التهمت ما تدفعه ثمنًا لتلك المواد القبيحة المُزرية .

وإني سأترك لك أيها القارئ الكريم الخيال كي تتصوَّرها وهي لا تزال في مُقْتَبل العمر واقفة أمام ربها تناجيه وتناديه ، فمثلها نادر الوجود !

كيف تظن يا سيدي أن هناك فتاة ثريَّة كهذه ، نعم إنها كالماسة الكريمة ، إن وجدت هنا ، فلا تعثر عليها في مكان آخر ... ".

****

على هذا النحو صَوَّر الكاتب شخصيتي (فتحي بك) وابنته (هدى) ، مقابلاً بينهما وبين شخصيتي (محمد بك) وزوجه (هدى) الماكرة اللعوب !!

بيد أن الكاتب تدخل ببعض العبارات التقريرية التي نالت من حركيَّة الحدث والإثارة !

****

– ٢٠ –

ويتابع الكاتب تَسَلْسُل الأحداث ، واصفًا رحلة الفتاة (فاطمة بنت فتحي بك) إلى القاهرة ، وما تعرّضت له من مشقة ومضايقات وحَيْرة وخوف وفزع ... وذلك قوله ، مستندًا إلى السرد الحكائي : [٢٧]

" عَزمت الفتاة على زيارة إحدى قريباتها في القاهرة ، فطلبت من السائق مصاحبتها، ولكن لسوء حظّها اعتذر لإصابة السيارة بعَطب بالغ ، فاستأذنت من والدها في الذهاب عن طريق السكّة الحديديّة ، فوافق على ذلك وصحبها حتى احتواها القطار .

نزلت الفتاة من القطار ، وكان الوقت قد قارب الغروب ، قاطبة الوجه ، وقد عراها بعض الاضطراب والفزع ، حين وقفت في ذلك المحط الكبير . ولكنها لم تلبث أن استعادت هدوءها وسارت في طريقها ، إلى ذلك الميدان الواسع (ميدان المحطة) ، فطلبت من أحد المارّة في لطف وأدب أن يَدُلّها على ترام الأزهر ، فامتطته حيث نشيدتها في ذلك الحيّ المترامي الأطراف .

وصل الترام فنزلت منه وظلّت واقفة بعض الوقت تستعيد فكرها؛ أين ذلك الشارع ؛ لقد زرته مع أبي، فأي هذه الشوارع يكون ؟

سارت الفتاة في اتجاه ظَنّته المُوَصِل إلى المنزل المنشود ، وكلما خرجت من شارع واصلت السير في آخر . ودون جدوى وقفت حائرة ساهمة الفكر ، ماذا تفعل وهي غريبة ، وليست بالخبيرة ؟ إذن تعتمد على السؤال . وفي تلك اللحظة مرّ بها شاب فسألته قائلة : أين الطريق الموصِل إلى الأزهر، فنظر إليها نظرة فاحصة مرتابة ؛ إنها جميلة وليست من هذه الجهة! ما العمل ؟ ولكنها استبطأت الردّ ، فأعادت عليه السؤال ، فأشار إليه بيده إلى ناحية الأزهر قائلاً : سيرى في هذا الشارع أترينه ؟ ثم بعده اتَّجهي شِمالاً ، وسيرى إلى نهايته تجدي طلبتك .

فشكرته وانصرفت ظانّة أنها قد فرغت من تلك المشكلة . ولكنها ما كادت تخطو حتى وجدت هذا ينادي أصدقاءه : صَيْدٌ ثمين ؛ أسرعوا قبل أن يأتي على (الطُّعم) ويفرّ .

فصار الشباب جماعة عددها أربعة أفراد ، ساروا يغازلونها ويخاطبونها بعبارات لاذعة تتنافى

والكرامة . ولكن دون جدوى ، فقد ذهبت محاولاتهم هباء ، لقد ظنُّوا أنها من تلكم الفتيات ، اللواتي يخرجن لهذا المعنى ويتسكَّعن في الطرقات ، ولكن ها هي تُخيِّب ظنهم فوقفوا مستفهمين : نتركها أم نتابع السير ؟ فتفوّه الجميع : إنها جميلة ! فتابَعوا السير وضيَّقوا عليها الخناق علّها تُسلم لهم القياد . ولكن دون جدوى ، نظروا إلى بعض مدهوشين ، ثم تابعوا المطاردة ، حتى يروا ما سيكون منها بعد ذلك .

بينما هي أسرعت الخطا حين عرفت ما تنطوي عليه نفوسهم الدنيئة وما قد عَوَّلوا عليه حيالها ، فجعلت تدعو ربها أن ينقذها من هذه الوحوش ، وهي ترتعد خوفًا وفزعًا.

إنَّ هؤلاء الأوغاد لا يؤثر فيهم رجاء ضعيف ، ولا يعرفون معنى الرحمة! ليس عندهم سوى هذه الصنعة الذميمة ، يبحثون عن فتاة ينهكون عرضها ، وينهشون لحمها! ثم بعد ذلك يتخاذلون ويفرُّون كالجِرْذان فرّت من القط .

ظلّت سائرة طوال الشارع ، وهي على حالتها من فزع ورعب ، وقد أضمرت أنها لن تذهب لهذه الزيارة المشؤومة بل ستسافر مباشرة إلى بلدتها ، خوف أن يقف في وجهها بعد نجاتها من هؤلاء الذئاب وغدٌ لئيم لا تقدر على الإفلات من بين مخالبه ...".

****

– ٢١ –

ثم انتقل الكاتب ، واصفًا حال الفتاة ، على أثر ما لاقته من اضطراب وفزع حيال هؤلاء الأوغاد، معتمدًا على (المصادفة) ؛ حيث استغاثت بالشيخ (محمود)، ومبيّنًا ردّ فعله حيال هذا الموقف ، مما حلّ به تلك الأزمة ... في قوله [٢٨] :

" وقد خرج محمود كعادته بعد إنهاء الدراسة الرسميّة إلى الجامع الأزهر ومعه كتبه يستعرض درسه، فلما حان وقت العشاء أدّاها وخرج متأبِّطًا أصدقاءه الملازمين له ، قاصدًا المنزل المتواضع . وعلى حين بغتة وهو واقف يُصلح حذاءه أمام المسجد ، وجد فتاة شاحبة اللون ، مرتعدة الفرائص، أسرعت إليه قائلة : أيها الشيخ ؛ أنقذني .. أنقذني.. بالله عليك إلّا ما أنقذتني من هؤلاء الأوغاد ، إني بحثت عن رجل أتوسَّم فيه الشهامة لينقذني من مخالب هؤلاء الذئاب الكاسرة ، إنها تريد أن تفترسني لقمة سائغة ، فإذا ما فرغوا من نهش لحمي قذفوا بعظامي بعيدًا .. أنقذني .. أنقذني .

نظر إليها محمود بتَشَكُّك وارتياب ، ولكن ما لبث أن عرف فيها تلك الفتاة الخائفة خوفًا طبعيًّا لا مصطنعًا ، وعلى حين غِرَّة ظهر أمامه شبح المطاردين : إنهم أكثر مِنّي عددًا وقوَّة ، ماذا أفعل حيال هذه الشِّرذمة الخائنة ؟ بأي حيلة أنقذ هذه الفتاة المسكينة ؟ فأعمل فكره : يا جهاد؛ حتى أتمّ

نسيج الحيلة بسرعة البرق ، فقام بأدائها ، ولأول مرّة يكذب .

مدّ يده مصافحًا وهو يقول : أهلاً حَلَلْت وَسَهْلاً نزلت ، كيف حالك يا أختاه ، وكيف أبي ، وجعل يُخاطبها ويستفهم منها عن بعض الشؤون المنزلية ، وبعدها قال لها : لِم تقفين هكذا ! هيّا بنا إلى المنزل ، وجعل يُرَحِّب بها بين الفينة والفينة ، لِمَ تأخّرت هكذا ؟ لقد انتظَرتك طويلاً ، حتى تسرّب اليأس إلى نفسي ، وكِدتُ أمشي لولا حضورك في ذلك الوقت .

كان يقول ذلك بصوت مرتفع ، وقد فطنت إلى حيلته وأنه يريد تضليلهم ، وكلما تفوّه بكلمة زاد في رفع صوته حتى يتسنى لهم سماع ما يقول .

لقد انطلت عليهم الحيلة ونالت من نفوسهم مكانًا من التصديق ، فنظروا إلى بعضهم البعض قائلين في سخرية : ها نحن قد حرسناها حتى أوصلناها إلى أخيها ، فما فائدة مواصلة السير خلفها ، أتريدون أن تحرسوهما معا ! هيّا إلى موضعنا أيها الرِّفاق...".

****

– ٢٢ –

ويتابع الكاتب تسلسُل الأحداث ، مُصوِّرًا مدى إعجاب الفتاة بخُلق محمود ، ومتغلغلاً في أعماق كلا الشخصيَّتين ، ومعتمدًا على عباراته الوصفية ، والحوار بنوعية ؛ الداخلي والخارجي ... في قوله (٢٩) :

" ضحك محمود طويلاً ، حين علم أن حيلته قد انطلت عليهم ، بينما هي ظلّت تشكره على تلك الأريحيّة الفذّة ، وتُثني على ذلك الخلق الكامل ، وجعلت تقصُّ عليه قصتها إلى منتهاها ، فقال لها : ألا تعرفين اسم الحارة التي فيها ذلك المنزل ، حتى أدُلّك عليه ؟

– فقالت : كان معي اسمها في ورقة لكني بحثت عنها كثيرًا فلم أجدها . آه ، إني أحسّ بتعب شديد ، ودوار في رأسي ، وأظنه من كثرة السير . وأخاف إن نزلت في فندق مقابلة مثل هؤلاء ، فهلّا تفضّلت عليّ ، واصطحبتني معك إلى منزلك ، لأقضي هذه الليلة مطمئنة .

كان محمود أشبه ما يكون في حلم ، عندما سمعها تُكرر رجاءها في اصطحابها معه؛ وتُبَرِّر موقفها ، ربّاه كيف ذلك إنها فتاة ، فكيف أصحبها معي إلى منزلي ، وما أدراني حقيقتها ، فربما كانت خائنة غادرة ، أرادت من جرّاء ذلك شيئًا لا زلت أجهله ؟!

نعم وما أدراني أن هذه العصابة ليست معها ؛ فربما كانت أحدهم ، أرادوا أن يسلبوني شيئًا ، فنصبوا لي شَرَكًا ، وهأنذا أقع فيه . ولكن ضميره راجعه قائلاً : مُحال ، محال أن تكون كما ظننت ، وإن كان ، فما الذي عندك يطمع فيه مثل هؤلاء ؟ إنك فقير معدم !

إنها صادقة ، فهناك غيرك أغنياء ، فلماذا لم يقصدوا إلّا الفقير ؟! لابدّ أنها صادقة في قولها...

خذها إلى منزلك ، وآويها من شرِّ هؤلاء المعتدين ، ولا تخف منها إنها هادئة وادعة ، لا تَنُمّ عن شيء من ذلك .

نعم ، ولكن أين تنام هي ، وأين تنام أنت ؟ ثم أيضًا من أين تأتيها بالغذاء ، وأنت مُعدم ؛ إذ اليوم آخر الشهر ؟ فماذا ستفعل ؟!

وقف حائرًا أمام هذه الأسئلة المتوالية ، المُوجَّهة من نفسه إلى نفسه ، لا يجد جوابًا، ولا يُبدي رأيًا ... بينما هي الأخرى تقف صامتة ، منتظرة الجواب ، ولكنها لم تجده أجاب عليها ، وقد أحسَّت بالبرد المؤلم فوق كتفيها ، قطعت الصمت بقولها : تكلَّم أيها الشيخ ، ما أسكتك ؟ فإنّ الناس رائحون وغادون ، يلتهمونا بأنظارهم الفاحصة ، وألسنتهم الحادة ، أجب !

فتيقَّظ محمود من غفوته على ذلك الصوت المرتعش ؛ إذ هزّ جميع مشاعره ، وبدون وعي لما يقول أجاب : محمود : هيّا إلى حيث تشائين .

ثم سار وهي معه ، وبينما هما كذلك خطر لها خاطر : أتسيرين مع فتى لا تعرفين اسمه ! يجب ذلك حتى تناديه . وفي تلك اللحظة كان ما يعتمل في رأسها ، هو ذات ما يعتمل في خاطره ، فلم يشعر إلّا وهي تسأله : أيها الشيخ لا تؤاخذني في تَطَفُّلي عليك ، اسمح لي بشرف معرفة اسمك ، بعد معرفة اسمي : فاطمة .. فاطمة ابنة فتحي نصرت من بلدة (...) ، وأنا أُدعى محمود بن محمد سعد من بلدة (...) .

سارا في طريقهما ، وقد خيّم الصمت عليهما ثانية ، فلم تجد بُدّاً من قطعة بقولها : يا شيخ محمود، إني أحسّ بألم لاذع مصدره الجوع ، فهلّا أتيتنا بطعام نأكله .

قالتها وصمتت لتسمع جوابًا ، ولكن بدون جدوى ... لقد قلبت هذه الكلمة فكره رأسًا على عقب !

محمود : من أين آتيها بالطعام ، وقد نفد ما معي ؟ يا الله كيف أفعل ذلك ؟ أصارحها بالحقيقة ؟ نعم ، فالموقف إن لم تُقدم على ذلك سيزداد تَحرُّجًا .

وبعد لأي من الوقت ، وحين نفد صبرها من الانتظار ، قال : اعلمي أن ما معي من النقود قد نفد ؛ إذ اليوم نهاية الشهر، فإن كان معك نقود فاعطني لآتيك بما تحتاجين.

فتبسَّمت ومدّت يدها وناولته قطعة من ذات العشرة قروش ؛ فأخذها وابتاع بعض الغذاء . ثم استأنفا السير إلى المنزل ... " .

****

– ٢٣ –

وهنا أخذ الكاتب يصف هذا المنزل المتهالك الموحش ، عاكسًا ما عليه (محمود) من فقر وبؤس، ومُصَوِّرًا أثر ذلك في اندهاش الفتاة وما ألمّ بها من الفزع ... ومن ذلك قوله[٣٠] :

" وماهي إلّا لحظات حتى كانا أمام منزل أغارت عليه الأيام ، حيث بدا كأنه قبْرٌ محطَّمٌ أتى عليه الزمن بضرباته وويلاته ...

كانت الفتاة تمشي وراءه مذهولة العقل ، شاردة الُّلبّ : فما بلغه هذا الطالب ، من رِقَّة العواطف وشيمة الشهامة ، وإدقاع الفقر ذلك الذي أحوجه إلى السكن في هذا القبر الموحش ، وذلك المنزل المهجور من كل أسباب الراحة ؟! فهناك تجد المتاعب جمّة ، حيث البرودة القارصة والرطوبة اللاذعة . حتى لقد أنساها كل هذا أنها ابنة ذلك الثري العظيم ، وأنساها السبب الذي من أجله جاءت إلى هذا المكان .

وحين فتح الباب ، دخلت تابعة قائدها الذي فتح حجرة قابعة يسار الداخل في أعلى المنزل، في ظلمة حالكة ، حيث لم تتبيَّنها إلّا حين فُتحت .

أحسَّت برعب وفزع شديدين قد انتشرا في أنحاء جسمها ، حين دخلت الحجرة ، ورأت الظلام قد احتواهما بين يديه : ربّاه ماذا أتى بي إلى هنا ؟! ولكن ما لبث فزعها أن أخذ في المحو؛ إذ رأت بريق الثقاب ، الذي أشعل به ذلك المصباح الصغير ، فأنار الحجرة حيث يَسْهُل لها أن تتبيَّن نفسها .

أدارت بصرها في تلك الحجرة ، يمنة ويسرة ، فوجدت حصيرًا منزويًا في جانب منها ، فجلست وجلس على ذلك الحصير ووضع الغذاء أمامها ... " .

****

– ٢٤ –

ومن هذا الوصف (المادي) لهذا المنزل المتهالك الموحش ، و(النفسي) لما شعرت به الفتاة إزاء هذا المكان ... انتقل الكاتب ، متغلغلاً في أعماق النفس ، ومُصَوِّراً سلسلة من الصراعات النفسيَّة المتلاحقة ، وذلك من خلال الحوار الداخلي (المونولوج) الذي دار في صدر (محمود) ... في قوله ، مازجًا بالوصف المادي ، والحوار بين الشخصيتين [٣١] :

" ولكنه لا زال شاحب اللون شارد الذهن ، غارقًا في لَجج من الأفكار : أأنام وهي هنا في هذه الغرفة ؟ أوّاه ، وفي فراش واحد ؟! نقتسم الفراش ، وأنام في جانب وهي في آخر ؟!... كيف ذلك ، والفِراش لا يسع سوى فرد واحد ؟! ... إذن ماذا سأفعل ؟ ربِّ دبّرني حيث لا أحسن التدبير .

جلس يأكل وهو لا يدري ما يفعل ؛ فقد تزاحمت في رأسه الأفكار ، حتى كاد ينفجر لشدة الدّوار . وفي لحظة من تلكم اللحظات ، خطر له ما طيّب نفسه قليلاً : قُم ونم في الفناء الخارجي ... وكيف ذلك يا ربّ وأرضه (قطع البلاط) مسكن الرطوبة؟! فراجعه خاطره : لا تنم ، أقضي ليلك ساهرًا ، ذاكر في دروسك .

ومضى هذا الخاطر كالبرق فأنار له الطريق من تلك الظلمات ، التي كادت تذهب بعقله ، فسرى عنه بعض ذلك الحزن ، ، الذي علا وجهه ، وانمحى أثر الكآبة التي خطّت فوق جبهته .
كان لهذه الفكرة وقعها الحسن من نفسه ، فَتَنبَّه لضيفه ، وبدأ يُحيِّيه إلى أن نفضا أيديهما من الطعام .
ثم قال لها : هاك مكان نومك وهاك فرشك . ثم أخذ قطعة الفراش وهَمَّ بالخروج، فاستوقفته قائلة : وأنت ؟ إلى أين ذاهب ، وعلى ما ستنام ؟
فقال لها : نامي أنت وسأقضي ليلي ساهرًا أذاكر ، فنامي أنت ولا تفكري .
فقالت : إذن أيقظني الفجر ، لأصلّي الصبح !
فقال : إن شاء الله !
والتفت إلى كتبه فأخذ منها ما أراد ، وحمل مصباحه حيث خارج الحجرة فحطّ رحله ، وجلس تاركًا ضيفه لينام " .

****

– ٢٥ –

ويتابع الكاتب وصفه ما دار من صراعات نفْسيَّة ؛ فهذا (محمود) يشعر بالارتياح بعدما توصَّل إلى فعل هداه الله إليه ... في قوله[٣٢] :
" جلس محمود خارج الحجرة ، وبدأ في المذاكرة ، منشرح الصدر ، مثلوج الفؤاد ، فقد علم أنه مرضيٌّ عنه ، حين هداه الله لتلك الفكرة الطيبة ، التي بها أدّى حقوق الضيف على أكمل وجه من غير أن يمسّ كرامته سوء ، جلس يُفكِّر كيف اهتدى إلى هذه الفكرة الحسنة ، وما سبقها من محاورات ومشاورات ، حتى انتهى به المطاف إلى هذا المكان الحسن ..." .

****

– ٢٦ –

ثم انتقل الكاتب إلى هذا الصراع المحتدم في صدر الفتاة ؛ فيما بين المعجبة بشهامة الفتى وأخلاقه ، وبين ضيقها بسلوك هؤلاء الشباب اللاهي العابث، وبين خوفها من شبح العار الذي قد يلحق بها من قِبل هذا الفتى ، وبين تأنيبها نفسها لمجرَّد ما جال في خاطرها من هواجس تجاهه ... وذلك قوله ، متابعًا عنصر (الزمان) [٣٣]، ومعتمدًا على الوصف وحديث النفس[٣٣] :
" بينما هو يفكر في ذلك ، كانت هي تفكر في نبله تارة وكيف أنقذها من براثن العار، وها هو يضحِّي بنومه ، ويقضي ليله الطويل ساهرًا ؛ حيث برودة الشتاء ، وتَغَيُّرات الجوّ.
ثم تشكر ربها ؛ إذ أوقعها في هذا الشهم الكريم ، النقيّ الورع ، وطورًا تتذكّر شباب هذا الجيل ،

وما يحدث منهم إزاء الفتيات ، وكيف كان يجري وراءها هؤلاء الذئاب بغية الافتراس، فكيف بهذا ، وهو لم يُكلِّف نفسه جَرْيًا ولا سعيًا ، لقد أتيته طائعة راضية ... آه ، تقول وتغمض عينيها حينما يَمُرّ ذلك العارض ، ويتراءى لها شبح العار لاحقًا بها ، وكيف أنها خرجت من بينها طاهرة الأذيال ، شريفة الخصال ، فترجع إليهم مُلَوَّثة بالفضيحة ، جارّة وراءها الجرم والمذلّة . تغمض جفنيها حين يخطر لها ذلك الشبح المخيف ، وهو يقترب منها ، تغمضها لهول ذلك المشهد وشدته ، ثم لا تلبث أن تمحوه بآخر قائلة لنفسها : وإن كان كذلك فما الذي منعه من وقت دخولنا المنزل إلى الآن أن يفعل ما بدا له ... أيخافني ؟! .. ما الذي جعله يترك حجرته ونومه ، ويقضي الليل ساهرًا أمام الباب كالكلب الأمين ، لا تغمض له عين في سبيل راحة صاحبه ؟! كلا إنه ليس كهؤلاء ، إنه شريف .. شريف النفس ، كريم السجايا فلا تظلميه ... إنك آثمة ، وَصَمْتِه بقبيح ليس من خصاله ، فاستغفري ونامي" .

****

– ٢٧ –

ومن تصويره ما دار في نفس الفتاة من صراع ، ينقلنا الكاتب ، معاودًا وصفه حال الفتى ، وما اعتمل في صدره من صراعات وهواجس شيطانية متتابعة ... في قوله ، مبينًا انتصار ضميره وأخلاقه على الشيطان والشهوة ، ومعتمدًا على الوصف وحديث النفس [٣٤] :

" تركها تفكر في ذلك ، بعد أن قذف بما يخالج نفسه من الفكر وراءه ظهريًّا ، وأعمله في الكتب والمذاكرة ، لا يلوي على شيء ، وكلما أحسّ بشدة البرد قد وصلت إلى جسمه من جانب ، جمع ثيابه وجعلها حائلاً بينه وبين الأرض . وهكذا إلى أن بلغت الساعة الثانية عشر ، فترك الكتاب قليلاً ، طلبًا للراحة .

وما إن رأى الشيطان تلك الفرصة حتى جمع أبناءه وأجناده ، واحتاطوا به من كل جانب ، وكل منهم له عمل خاص ، فهذا يأخذ بيده ، وذاك يرفعه من مجلسه ، وآخر استولى على عقله وفكره وشوَّشْهما بالخطط والتدابير :

محمود ، إنك الآن ستضطلع بدور البطل الذي جاءه الصيد طائعًا ، فأبى هذا إلّا أن يُطلقه ليصطاده ثانية بسهم ليس في يده ، نعم ، إنك ستظهر أمامها ذلك الرجل المُجَرَّد من كل شعور إنساني ، كيف تكون هذه تحت يدك وتتركها ! قم نال وطرك منها ، ولا تتوان ، فالنهار على وشك البزوغ .

وكيف ذلك ؟ إنها شريفة كما أنا شريف ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لا ، يجب أن أكون عفيفًا .

واستأنف المذاكرة من جديد ، ولكن كيف يتركه يذاكر ، فأظهر له السآمة والملل في المذاكرة ، ثم قال له : تدَّعي إنها شريفة ، إنك إذن تتغافل عن حقيقتها الظاهرة للعيان (شريفة)! ، إنها لو كانت كذلك لما أتت إليك ، وأظهرت أمامك هذا الاطمئنان ، أليست الفنادق تملأ القاهرة ؟ ما السبب في مجيئها إذن ؟

إنها فتاة جميلة ، جميلة جدًّا ، فمن العار أن تتركها كالغزال يشرد من بين يديك . قم فما بالك متكاسلاً ، وأظهر أمامها بما تحبه هي ، إنها لم تأت إلّا لذلك ، فكيف تتغاضى عن الحقيقة؟ قم فليس الآن مجال الشرف وخلافه ، إنها فرصة سنحت فَخُذها ، وبعدها.. تُب .

نهض محمود واقفًا ، وقد لعب الشيطان بلُبِّه ، فمشى بخطوات ثابتة نحو الباب ؛ حتى إذا ما وقف أمامه ارتعدت قدماه ولم يقو على المشي ؛ فوقف ليستعيد نشاطه ، وعندما هَمَّ بالمشي ثانية سمع صوتًا من خلفه ، ومن أمامه ، لا يدري مصدره ، صوتًا ظنّ على أثره أن المنزل قد انهار فوقهم ، يقول : قف لا تُقدم على تلك الفعلة الشنعاء ، لا تُقدم عليها واتقّ الله ، لا تخط نحوها ، قف واستعذ بالله من الشيطان ، فهو الذي فعل معك ذلك لعنه الله من لئيم أحمق . أيظن أني سأتركك لوساوسه ؟ ارجع إلى مكانك واجلس كما كنت ، وإلّا نزل بك جام غضب الربّ الأعلى ، الذي يرقبك الآن ، وما تصنع .

ثم تلا قوله تعالى : «﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾» .

ارجع ... عما أنت مُقدمٌ عليه !

تراجع الفتى ، تحت ضغط ضميره صاحب (الصوت) ، بعد أن كاد الشيطان يفترسه ، ويجعل منه لعبة يتسلّى بها في سكون الليل .

تراجع الفتى ليشكر الله على ما أولاه من النعم ؛ حيث لم يجعل للشيطان عليه سبيلاً... تراجع ثانيًا، ليعاود الكتاب والمذاكرة ؛ حتى تكون حصنا بينه وبين الشيطان... ظلّ يذاكر مُدّة تقرب من الساعة والنصف .

ثم خلع الشيطان قناعه السابق ، وطرق بابًا جديدًا وجاءه الشيطان ليقول له : نعم لا تُقدم على ذلك، فما أكثر ضرره ! وما أقلّ نفعه ! ثم تركه .

وبالصوت الذي سمعه من وقت قريب ، تكلَّم : محمود ، لتترك الشيطان وما يطلب منك، فهو عدوّك دائمًا ، إنه يطلب منك الآن تركها ، قم إليها فهو لا يحب لك الخير ، أقم بينك وبينه شق الخلاف ، قم فإنها الآن تنتظر ذلك منك ... أتريدها تطلب منك ذلك ؟ ! إنني ضميرك فاصغ إليّ، ولا تظهر أمامها بمظهر الطفل الضعيف ، قم نحوها ... هيّا هيّا انهض ! .

فقذف بالكتاب أرضًا ونهض واقفًا ، والشيطان مُمسك بيده ، وأعوانه يدفعونه من خلف ، حتى إذ حاذى الباب ، وقف برهة . ثم دفع الباب في رفق ، كأنه لصٌّ دخل ليسرق منزلاً ... دفع الباب بيد مرتعشة خائفة ، ثم رفع إحدى قدميه فوضعها داخلها ، وهنا تبلبل ذهنه ، وطار عقله ، حين تصوّر عاقبة ما هو مُقدم عليه .! .

أخافَ ذلك الشيطان ، فأتى ساخرًا به : يا لك من رجعي ضعيف ، ما هذا الاضطراب ؟ علام هذا الانزعاج والارتعاش؟! تثبَّت وادخل حجرتك في غير ما وجل ولا جزع ، إنها حجرتك ففيم الخوف ؟ ادخل !.

فَهَمَّ بخلع قدمه من الأرض ، غير أن حارس حماه جاء مسرعًا ، قبل أن يفلت الزمام من يده ، وبنفس الصوت السابق نادي : قف مكانك ! لا تدنُ منها ، وإلّا فقد هلكت ، قف لا تغمد سيف المعصية في صدرك ، ولا تلق بنفسك في تلك الهاوية ، الملآى بجميع صنوف العذاب ! قف لا تغترّ بأمنيات الشيطان ! لقد أراد أن يسرع في قوله لك : «ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ » !

رجع وكله شعور بالنشاط والفرح ؛ حيث أن ضميره قد وفاه في ساعة الحرج والشدة ، ولم يتركه وحيدًا بين الشيطان والشهوة) ... " .

****

– ٢٨ –

ويتابع الكاتب مجدّدًا هذا الصراع النفسي المحتدم بين محمود وبين الشيطان ؛ فالشيطان لم يستسلم ولم يقبل الهزيمة ... وذلك قوله ، مستهِلاً بمقدمة وصفية كاشفة حال الفتاة (٣٥) :

" كان النوم قد داعب جفون الفتاة ، فنامت ، ولكن كان ذلك تحت ضغط التعب الذي لحقها في يومها ، ولولا ذلك لم تنم طيلة ليلها ، غير أن نومها كان متقطِّعًا ؛ إذ كانت تُحِسُّ في قرارة نفسها بخوف شديد .

تركها النوم فجأة ، وولَّى هاربًا ؛ لتستيقظ على صوت الباب ، وهو يُفتح ، وسرعان ما تنبَّهت ، ولكن بدون أن تشعره باستيقاظها ، ورأت ما حدث ، وكيف خرج ثانيًا ، فكان هذا رسولاً للاطمئنان؛ حيث فسّرت ذلك بأنه جاء ليأخذ بعض الكتب . أرادت أن تنام عقب ذلك ، ولكن الكرى تركها بغير أوبة لتظلّ طريحة الفراش مُسهدة .

جلس محمود يذاكر ، ولكنّ الشيطان الطموح لم يجد مانعًا من معاودة الكرَّة ثالثًا ؛ فاصطحب جنده، وجعل يداعب رأسه بشتّى الوسائل والطُّرق ، ليصل به في النهاية إلى الفتاة، ولكن عكس ما ظنّ ، ففي هذه المرّة لم يجد أذنًا صاغية .

وقف يُفكِّر في الطريقة الفضلى لإيقاع هذا المستعصي ، ولم يمكث كثيرًا في نصب الشَّرَك له،

ولكنه من ذلك النوع الذي لا يفرّ منه من وقع فيه ؛ ذهب إلى شهوته ، وجعل يدسُ بينها وبينه حتى ثارت عليه ، وقامت ضده بحرب شعواء ، كذلك ذهب إلى نفسه ، وجعل يُزَيّن لها بهرج تلك الفتاة ، وكيف أنه سيتركها تفرّ منه ؛ فقامت الأخرى ضده بثورة عنيفة ، ثم ذهب إليه حينما أحسّ بالضعف قد تسرَّب إلى عزيمته ، وخاطبه قائلاً : أيها الفتى تَصَوَّر صيّادًا وقعت في شباكه غزال، فأمسكها بيده ثم أطلقها! تخيَّلة بعد ذلك ، حينما يقف ضاربًا كفًّا بكف ، مُتَحَسِّرًا على ما فعل ، نادمًا كل الندم... إنك لن تَقِلَّ عنه تحسُّرًا وندمًا ، بل ستزيد بعد ذلك كله ألمًا .

وقف محمود أمام أعداء ثلاثة ، كلهم قوة ونشاط ، مُظهرًا ضعفًا وعجزًا ؛ فلم يجد بُدًّا من الإذعان لمطلبهم والسير بصحبتهم .

خطا حتى وصل إلى الباب فدفعه ، وما هي إلا لحظة حتى كان جوف الحجرة قد احتواه ، فمشى بضع خطوات نحوها ، فجاء رسول الفضيلة يجري مسرعًا ، وما إن لحق به حتى صفعه بقوته السماوية صفعة أدارت وجهه ، ليجد عجبًا ؛ وجد الأعداء الثلاثة وقوفًا خلفه وقد أخلدوا إلى ضحك متوالٍ وسخرية واستهزاء ، رأى ذلك كله ، فثار عليهم ولوّح بيده في الفضاء ورماهم بها فسقط ثلاثتهم فوق بعض متهالكين ، وهو مار من فوقهم ، يطؤهم بقدميه، خارجًا من تلك الحجرة المخيفة ... ".

****

- ٢٩ -

ويتابع الكاتب تجسيده هذا الصراع النفسي العاصف الذي انتهى بانتصار (محمود) على نفسه والشيطان ، مُصوِّرًا ندم الشخصية لمجرد التفكير في الفاحشة ؛ حيث جعل (محمود) يخاطب نفسه ويؤنِّبها بحقيقة ضعفها وحُمقها ... وذلك في سلسلة من التساؤلات المُجيبة ... حيث يقول ، في (حديث النفس)، مقتبسًا طائفة من الآي القرآنية ، ومستندًا إلى الوعظية التقريرية [٣٦] :

" خرج منها ليجلس أمام مصباحه فقط ، لا ليذاكر ، بل جلس يؤنِّب نفسه الشريرة التي استوحاها الشيطان لتوقعه في المهالك ؛ خلع زجاجة المصباح ومدّ أصبعه فوق ناره، ولم يرفعه إلّا بعد أن نفد صبره لشدّتها .

لم يرفع أصبعه من فوق النار مختارًا ، بل خلعته الطبيعة ؛ فحينما أحسَّ بلذع النار الشديد، أرسل صرخة مكتومة رفع أصبعه عقبها ، بدون أن يشعر بذلك . ثم صَوّب إليه نظرة وجعل يقول لنفسه: أيتها النفس الراضية على ذلك الفعل المشين ، مِمّ كل هذا الخوف والانزعاج ؟ ولم صرخت هذه الصرخة التي صدرت عن غير وعي ، وفيم رفعك الأصبع من فوق هذه النار ؟ أأذاكِ لذعها فخفت هذا الخوف المميت ؟ أم أحسست بضعفك أمامها ، فصرخت هذه الصرخة ، تُنبِّهيني أن

أرفعه من فوقها ؟!

أخفتِ أن تحرقه النار ، فتفقدين عضوًا من أعضائك ؟! إنك لضعيفة كل الضعف حقًّا !!

أيتها النفس المُقْدِمة على الفاحشة من غير أن تجزع أو تضطرب ؛ ما قيمة هذه النار الضعيفة بجانب تلك النار التي وقودها الناس والحجارة ؟! ما أجهلك من نفس دنيئة حمقاء ! تتوجَّعين من تلك النار المنطفئة ، وتقذفين بك في نار تلظّى ، يصلاها كل شقي مُتمرِّد ؟!

أيتها النفس القوية الشجاعة ، أين شجاعتك وشهامتك ، تلك التي لا تهابين بها نار الجحيم، التي فيها الشراب ماء غسلين ، يشوي الوجوه كشي الحميم ؟ أين تلك القوة حين تخازلت أمام هذه الشرارة الضئيلة ؟!

أيتها النفس الحمول الصبور ، المتفانية في سبيل لذائذها ومتعها ، أين تَحَمُّلك وصبرك ؟ يا من ستذوقين طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون ، فيقوض أركانها ، ويهدم دعائمها ، فإذا ما انتهى جلدك هذا ، بدّلت جلدًا غيره !!

أين صبرك الذي سيتحمّل كل ذلك ؟! فلا تصرخين من تلك النار التي لا تضارع جزءًا من ألف جزء من ذرّة من النار التي تُقبلين عليها بالكليَّة ! انزجري ، واتَّعظي ، ولا تسيري في طريق الشوك، يُصيبك منه بالغ الضُرّ وسيِّئ العاقبة .

خاطب نفسه بهذا الخطاب ، وكان قد أحسّ بأصبعه يحمل ألمًا من طول مكثه فوق النار ، فأتى بقطعة من القماش ربطه بها ثم قام ليتوضأ ؛ حتى يؤدِّي الواجب الذي يطرق في هذا الوقت الباب: الصلاة خير من النوم " .

****

– ٣٠ –

وبعد أن أفاض الكاتب وأطنب في نسج هذا الحوار الداخلي (المونولوج) ، الذي أقامه على التقريرية الوعظية ، والذي أداره بين الشخصية (محمود) وبين نفسه ... انتقل، واصفًا حالة الفتاة ، وما دار في خواطرها من تساؤلات وهواجس ... في قوله مختتمًا هذه الرحلة [٣٧] :

" كانت الفتاة مستيقظة عندما أحسّت بدخوله الحجرة ثانيًا ، ورأت ما عزم عليه من الخيانة فاقشعرّ بدنها ، وانكمشت في نفسها ، تُفكِّر في حيلة تنجو بها : ربّاه ، أهرب من سيِّئ إلى أسوأ ! واستنجد من الرمضاء بالنار ! ما هذا يا رب ؟ ألم يعد هناك عفاف ، وشرف ، أماتت الفضيلة ، أذهبت الأمانة إلى حيث لا يُعرف لها مكان ؟!

بينما هي في هذه الخواطر ؛ وافاها الله وأجاب دعاءها ، فرأته خارجًا من الحجرة ، وقد بدا على

وجهه الاهتمام ، فأصاخت بسمعها ، حين سمعته يتكلَّم مع نفسه بذلك الحديث ، فعلمت من اعترافه هذا كل ما كان حدث؛ سرت في جسمها على أثر ذلك رعدة الفرح ، عندما تأكدت أن شيئًا من ذلك لن يحدث مطلقًا ؛ إذ قام إلى الصلاة ، كذلك قامت هي الأخرى وصلّت ثم طلبت منه صحبتها إلى المحطة تسافر حيث بلدتها فقام معها وودّعها .

وسافرت الفتاة حاملة معها سرّه الذي لم تشأ أن تعترف له بأنها سمعته ! " .

****

- ٣١ -

وتتوالى الأحداث ؛ حيث أُعجب (فتحي بك) والد (فاطمة) بشهامة (محمود) ونُبل أخلاقه ، مما جعله يُزوِّجها منه ... ومرّت الأيام ، وأراد فتحي بك أن يوصي زوج ابنته على ثروته قبيل موته ... فنسج الكاتب هذا المشهد الذي ضمّ الشخصيات ؛ فتحي بك وزوجه وابنته وزوجها ووليدهما ؛ حيث مزج بين الوصف والحوار... في قوله [٣٨] :

" نظر فتحي بك إلى ابنته ، ثم إلى زوجها ، ثم إلى الوليد الصغير ، نظرات تدلُّ كلها على اليأس والقنوط ، وأكدّ ذلك حينما سدّد إلى الطفل الجديد نظرة ، ثم قال : آه ... ليتني أحيا حتى أراك كبيرًا ، وأحملك في صِغرك بين يديّ ، آه ... ليس هناك أمل في رؤية جدّك ، والد أبيك ...

فأرسلت عيناه بريقًا لامعًا كأنه ماء الفضة ، اضطره إلى الصمت والسكون .

وقف الزوجان ينظران إليه تارة ويتبادلان قراءة ما يجول بخاطرهما تارة أخرى ، وهم في أشد الحيرة والارتباك ، ولكن ما لبث أن قطع عليهما تلك النظرات صوتٌ خائرٌ ضعيف ، كأنه خارج من جوف الأرض ...

فتحي بك : محمود ، لي سريرة أريد أن أُفضي إليك بها ، إذ ليس هناك من أثق به – كما تعلم– سواك .

محمود : والدي لا تيأس ، فلا زلت صحيحًا بعيدًا عن ذلك الخطر بعدًا شائعًا ، فلا تجعل لليأس عليك سبيلاً ، واعلم بأنك ستشفى من كل ما ألمَّ بك .

ثم قطع الكلام اختناق صوته الذي خاف أن يُحسّ به الرجل فصمت .

فتحي بك : يا شيخ محمود ، اعلم بأن هذا الأمر واقع لا مفرّ منه ، وهذا ما أحسّ به الآن ، فاصمُت ولا تُضع الوقت سُدًى ... محمود ، أنت تعلم أنّ لي ضياعًا وأموالاً ، وتعلم أيضًا أن لا وارث لي إلا زوجي وابنتها هذه ، أي أمك وزوجك ، وإني مُثْبِت جميع ما أملك لك وزوجك ؛ تتصرَّف فيه بما يُخوِّله إليك ضميرك ، ويوحيه إليك قلبك ، أحسنت التدبير أم أسأته ، وقد أخبرت بذلك زوجتي ، فاستحسنت ما ارتأيته ، وهاك توقيعي فأقبل ذلك مني (أب وابنه) .

ثم أخلد إلى الصمت قليلاً ، ليستعيد لأنفاسه المتوالية ، ودقّات قلبه المتضاربة ، بعض الراحة .

سمعت فاطمة كل ذلك ، فحجبها عن نفسها غشاء مظلم (الذهول) ، فأصبحت لا تدري ، أهي تبكي أم تضحك ، أم على أي صورة هي ، نظر فتحي بك إليهما ، وقد أحنوا رؤوسهما فوق صدورهما ، فقال :

ولديّ ، لا تخلدا للتفكير هكذا ، فهذا يضيركما ! ادع أمك يا فاطمة .

جلسوا جميعًا ينتقلون من حديث إلى آخر ، وقد شجّعهم على ذلك أن فتحي بك جعل يشاطرهم أحاديثهم ، بينما الآلام تطحن في عظامه ، وهو متحامل على نفسه حتى يكون وقع الحادثة في نفوسهم خفيفًا . وبينما هم كذلك إذا بهم يشعرون فجأة بنقص في الحديث ... فوجدوه ينظر إلى محمد حفيده نظرة تحسُّر ، ثم إذا به يبتسم فجأة ويغمض عينيه ، متراخي الأعصاب ، فينحني رأسه فوق صدره .

محمود : آه ... لقد مات . أمّاه ، هذا أبي ، لقد مات .

ثم جعلت تتفوّه بكلمات كثيرة لم تع لها ولا أحد من الموجودين ؛ فهذا يبكي بحرارة من فؤاد مقروح وقلب مجروح ونفس مكلومة ، وتلك تبكي بكاء الثكلى ، ولكنهم ما لبثوا أن استعادوا بعض رشدهم ، فقاموا بتجهيز الميِّت ، وظلُّوا يواسون بعضهم حتى أن واروه التراب ... " .

****

على هذا النحو ، اتَّسم هذا المشهد بالهدوء العاطفي ، والانفعال المكبوت ، الذي يتلاءم مع الموقف . وقد اعتمد الكاتب في نسجه على الحوار بين الشخصيات مُتَدَخِّلًا بعباراته الوصفية في المواقف المناسبة ؛ بدا ذلك في مستهلّ المشهد ، وفي تضاعيفه ، وفي خاتمته ... من كلّ ما أضاء للمتلقي ما لم يكشفه الحوار من أبعاد نفسية .

****

ومما تقدَّم من قيم تلك الدعائم (السرد/ الحوار/الوصف) التي اعتمد عليها الكاتب في نسجه الأحداث ، وفي تصويره طبيعة الشخصيات ، داخليًّا وخارجيًّا ... تبيَّن أنه اعتمد على اللغة العربية البسيطة ، الخالية من التعقيد ، وأنه لم يستخدم اللغة العامية .

كما تَبَـيَّن أنه استند إلى عنصري (الزمان) و(المكان) ؛ إذ من الثابت أن البيئة ببعديها الزماني والمكاني ، تُعدُّ عنصرًا حيويًا مُهمّاً في نسج البنية السردية ، وفي تصوير قيمة مُعيَّنة من حياة المجتمع [٣٩] .

وإذا لم يكن كاتبنا قد اهتمّ بتحديد قيمة الزمان (الخارجي) ، المُتعلِّق بالمدة التاريخية التي تجري فيها الأحداث ، فأغلب الظن أنها تناولت العقد الخامس من القرن العشرين ، يُرشِّح لذلك أنه الزمن

الذي كُتبت فيه القصة .

بيد أن الكاتب اعتمد على الزمان (الداخلي) ، المتّصل بنسج الأحداث والمشاهد ؛ من ماض ، وحاضر ... ودقائق ، وساعات ، وأيام ، وشهور ، وسنين ... والليل ، والنهار ، والغروب ، والعشاء ... إلخ ذلك ، من حيث دلالات السرعة ، والبطء ، والاستغراق ، والترتيب .

وإليك طائفة متفرقة ومتنوِّعة من تلك العبارات التي احتوت قيمة (الزمان) بمستوياته المختلفة (٤٠) :

" في هذا الوقت (وقت الغروب) / هذه هي عادتهم الأسبوعية/ سار في ذلك الليل البهيم، لم يتجاوز السابعة والعشرين/ الأيام تمرُّ تباعًا/ وحينما تكاملت الأيام الماضية أشهر عشر/ مرَّت الأيام تلو الأيام ، والسنون وراء السنين إلى أن اجتمع له من السنين ست / وما هي إلّا سنوات أربع / اليوم الخميس ، وفي صباح بعد غد ستبدأ الدراسة / مضت الأيام تترى، والسنون تتوالى / منظر الشمس عند الغروب / الوقت يَمُرُّ بطيئًا كسيحًا / مضت دقائق معدودات / وظلّت هكذا إلى أن أخذ الليل في الانتصاف / مرَّ عليها غائبة عن الصواب بعض الدقائق / انقضت أيام المأتم الثلاث/ وبعد عدّة أيام / مضت الأيام تتلوها الأيام ، والسنون تتبعها السنون إلى أن تكاملت خمسًا / هدى ابنة الفقيد فلان عندها خمس وعشرون سنة/ مضت الأيام تترى/ وبعد مُضيّ نحو من أسبوع / مضى على تلك المشادة ما يقرب من الساعة والنصف/ مضى على ذلك الحادث اليوم بأكمله / إن الأستاذ محمود مضى عليه حوالي اليومين غائبًا/ أيقظه في الصباح لذع الشمس/ هذا اليوم الثلاثين ، نهاية الشهر/ فلما حان وقت العشاء أدّاها ، وخرج قاصدًا المنزل المتواضع / ويقضي الليل ساهرًا أمام الباب/ وهكذا إلى أن بلغت الساعة الثانية عشر/ انقضت أيام المأتم ، وكلما مضى يوم ازدادوا جزعًا وحزنًا ..." .

****

وكما لم يُحدِّد الكاتب (الزمان) الخارجي الذي استغرق الأحداث ، فإنه أيضًا لم يُعيِّن (المكان) العام الذي جرت فيه الأحداث ، مكتفيًا بقوله المتكرر (في بلدة ..) . وأغلب الظن أنها ريفيّة ، وإن كان هناك بعض الأحداث التي دارت في القاهرة ، كما دار أغلبها في القصور التي شهدت العديد من المتناقضات الحيوية ؛ بين الشرف والعفة ، والانحراف والانحلال .

ولعلّ الكاتب اكتفى بوصفه البيئة الخاصة (الأسرة) ، مُنبِّهًا إلى أن المجتمع المصري كان يقوم على هذه البيئات ؛ فالبيئات الأسرية على هذا الافتراض تُمثّل البيئة المكانية العامة .

بيد أن الكاتب استند إلى طائفة من الأماكن (الداخلية) ، التي تردَّدت فيها الشخصيات ، والتي احتوت الأحداث والمواقف ... ومن ذلك ما يتجلّى في تلك العبارات (٤١) :

" وفي بلدة (...) على شاطئ النيل/ الجامعة الأزهرية/ في ذلك اليوم اضطربت أحشاء المنزل/

تنظر في إحدى شرف المنزل المُطِلّة على النيل / قالها وهو أمام الباب الذي ترقد فيه السيدة/ سافر الابن إلى القاهرة/ فذهب إلى إحدى الحدائق ، وأخذ يتربَّص ويتنقَّل إلى أن أخذت الشمس في المغيب/ ساقتها قدماها إلى تلك الحديقة/ ومن فوره قام للسفر إلى القاهرة/ وهو سائر في طريقه حتى وصل إلى المحطّة / نزل من القطار/ استأجر غرفة توافق حالته الماليّة/ الجامع الأزهر/ في بلدة (...) تقطن أسرة فتحي بك / نزلت الفتاة من القطار وكان الوقت قارب الغروب/ ثم استأنفا السير إلى المنزل / أدارت بصرها في تلك الحجرة / وصلت الفتاة إلى منزلها/ وصل الركب إلى المنزل ... " .

****

هذه كانت طائفة متنوعة من عنصري (الزمان) و(المكان) بمستوياتهما المختلفة ، في مختلف تضاعيف الأحداث ، من البداية إلى النهاية ؛ سردًا، وحوارًا ، ووصفًا ... وقد بدا واضحًا تداخل هذين العنصرين في الكثير من المشاهد والمواقف ... من كل ما أبرز تمكُّن الكاتب من توظيف أدواته الفنية في نسج هذا البناء السردي .

****

ب- بين الخطاب التقريري ، والتصوير التجسيدي :

ومما تقدّم في وقوفنا على تلك الدعائم الرئيسة (السرد/ الحوار/ الوصف) ، تبيَّن أن الكاتب مزج في أسلوبه بين اللغة الخطابية التقريرية ، وبين التصوير التجسيدي ... وإليك ما يُمثِّل ذلك :

١- الخطاب التقريري :

لقد استند الكاتب كثيرًا إلى اللغة الخطابية بمختلف صورها ... وذلك على النحو الآتي :

- ١ -

ومما يلفت الانتباه في هذا الاتجاه أن الكاتب لجأ إلى طائفة كبيرة من العبارات الحكمية ، التي صدّر بها المشاهد والأحداث ... في نحو قوله (٤٢) :

- " إذ عجز الشيطان في مَهَمَّة أوفد امرأة " .
- " تقيم التماثيل من ثلج ثم تشكو من أنها تذوب " .
- " الإنسان طموح لايحب لغيره صعودا عليه ، فإذا ما أنجب هانت عليه الحياة ".
- " كلنا يخوض في الوحل ولكن بعضنا يتطلع إلى النجوم ! " .

" صدقني يا صاحبي أن ليس في الأرض ما يستحق أن تُلِحّ في طلبه ؛ فالعالم كله لا يساوي قُلامة ظُفر ، وقد تساوى قُلامة ظفر كل ما في العالم " .

- " ما أعدل الطبيعة ، وهبت كل مخلوق لعبته ؛ وهبت الدمية للطفل ، والطفل للرجل ، والرجل

للمرأة ، والمرأة للشيطان " .

– " الموت حقٌّ مكروه ... ترى الناس يَفرّون منه ، ولكن إليه ؛ فمهما طال أمد الفرار ، وبعدت المسافة بينهم وبينه ، فإنك تراهم مثول بين يديه " .

– " جمالٌ بلا فضيلة ، زهرة بلا رائحة ؛ الفضيلة قد تلبس الحرير ، وقد تلبس الأسمال" .

– " إنه يكتب على الماء ، ويزرع في الرمال ، وينصب شباكًا للريح ؛ هذا الذي يضع أمله في قلب امرأة ! " .

– " لا تخف من تهديدات الأغنياء ، فإنها أضعف من دموع الفقراء " .

– " الصلاة في الصباح مفتاح ذهبي ، يفتح القلب لخدمة الله ، وفي المساء قفل حديدي يحرس القلب من الآثام " .

– التواضع فرصة يتيحها المرء لغيره من الناس لكي يتحدثوا بفضائله ومزاياه " .

– " قطعة غيم سوداء بينك وبين الشمس تحجب ضوءها عنك ، وأصغر خطيئة فيك تحجب نورك عن سائر الناس " .

****

هذه كانت بعض العبارات التقريرية التي صدر بها الكاتب مختلف المشاهد والمواقف ، وعلى الرغم من أنها مُسْتَمَدَّة من المحتوى العام للقصة ، فإنه لا حاجة لها ، بل إنها شكّلت عبئًا ثقيلاً في الأحداث ، مما قد يصرف المتلقي عن المتابعة والترقُّب !

****

– ٢ –

كما لا يغيب عنا خطابيّة الكاتب فيما حشده من الألفاظ والعبارات الإسلامية والقرآنية... ومما اقتبسه من آي القرآن الكريم ما يتجلّى في الآتي [٤٣] :

– ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾... إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ ، الإنسان / ٨-٢٢ .

– ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ ، الحديد /١٣ .

– ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ ، طه /١٠٧ .

– ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، يوسف /٢٨ .

– ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، يوسف / ٢٣ .

- ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ ﴾ ، المائدة / ٢٩ .
- ﴿ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ، القصص/ ٢٢ .
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ، الحجرات /٦ .
- ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، الأعراف/٢٧ .
- ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، الحشر/ ١٦ .
- ﴿ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ، البقرة/ ٢٤ .
- ﴿ نَارًا تَلَظَّى ﴾ ، الليل /١٤ .
- ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . ﴾ ، الحاقة /٢٥، ٢٦ .
- ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ ، الكهف/ ٢٩ .
- ﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . ﴾ ،الدخان / ٤٤- ٤٦ .
- ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ النساء/٥٦ .

****

هذه كانت طائفة مما اقتبسه الكاتب من آي القرآن الكريم ، وعلى الرغم من أنها جاءت متلائمة مع ما ترمي إليه القصة من مقاصد ، فإنها- عمومًا- زادت من حِدَّة الخطاب التقريري الوعظي ، ونالت من الإثارة وحركية الأحداث !!

- ٣ -

ومن المشاهد ذات الخطاب التقريري ، ما رأيناه في سياق وصفه شخصية (محمد بك) ، صاحب القصور والحدائق . المحسن للفقراء ... حيث أخذ الكاتب يسرد على لسان الشخصية السبب الذي جعله يعتاد إطعام الفقراء والإحسان إليهم ، مبيّنًا أن ذلك يرجع إلى تَجنُّبه تقلّب النفس وتحوُّلها من الخير والنور والفضيلة إلى الشرّ والظلام والرذيلة ؛ وقد وجد ضالته في القرآن الكريم ... وذلك قوله ، مندفعًا في سرده وتوجيهه[٤٤] :

" إنك إذا سألته ما السبب في تمسُّكك بتلك العادة ؟! تجده اعتدل في جلسته ليقص عليك داعيه إلى ذلك :

رأيت الإنسان قد أخلد إلى إرضاء نزعاته ؛ خيرًا أو شرًّا ، وصمّم على تحقيق مطالب شهواته ، فمشى يترنّح في ظلمات لا بداية يعلمها لها ولا نهاية .

سار في ذلك الليل البهيم ، لا يرى شيئًا سوى نفسه ، ولا يعرف في هذا الوجود غير شهوته .

رأيت ذلك الرجل ذو النزعة الخيريّة ، قد انقطع منه وتره الحسّاس ؛ فانقلب وحشًا ضاريًا ، وحيوانًا دنيئًا ، انقلبت تلك النفس الرقيقة الشعور ، كما أوحى إليها به قلبها الطيب ، الشغوفة على أبناء جنسها ، السابحة في لُجّةَ من النور ، انقلبت إلى نفس شريرة غليظة ، ليس فيها من الرحمة مثقال ذرّة ، انقلبت إلى نفس مُجرَّدة من العفاف والفضيلة.

أقام عبيد هذه النفس الحفلات الساهرة ، وأحيوها بين رقص وغناء وشراب وطرب ، فإذا ما انقضت تلك السهرة الممتعة آوى كل منهم بمن روّضها من الفتيات إلى فراشه على مرأى ومسمع من زوجته– التي لن تفعل إلّا مثل ما يفعل– يعتدي على الفضيلة فيذبحها ، وهكذا... وهكذا !

ظللتُ أبحثُ عن شيء يُعفيني من تلك الفريضة الشيطانية ، ويُريح نفسي من الشقاء التي تسبح فيه ، وأخيرًا ، وبعد تكبُّد المشاق والشدائد ، بل بعد أن ضِقت ذرعًا بهذا المجتمع الوضيع ، عثرت على ضالّتي ، عثرت عليها بعد أن كاد اليأس يتسرّب إلى نفسي ، عثرت عليها بين جوانح ذلك الكتاب المقدس (القرآن) ، وجدتها كامنة بين دفَّتيه ، قابعة بين ثناياه ؛ فقرأتها مرة وثانية ، وكلما كرَّرتُ القراءة ازداد الطريق المظلم أمام عيني وضوحًا :

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا . وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ . قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا . عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا . وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا . عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا.﴾ ، الإنسان / ٨-٢٢ .

****

على هذا النحو الاستقصائي التقريري ، استعرض الكاتب على لسان الشخصية (محمد بك) السبب وراء تمسُّكه بعادة الإحسان إلى الفقراء ، معتمدًا على تلك المقابلة بين الشقاء والسعادة، ومستندًا إلى آي القرآن الكريم ... وذلك في توجيه وعظي مطوَّل من شأنه تجميد الحدث والنيل من الإثارة المرجوّة في البناء السردي !!

****

– ٤ –

وإليك هذا الخطاب التقريري التوجيهي ، الذي ضمّ طائفة من تلك النصائح الوعظية التي أسداها

(علي بك) لابنته (فاطمة) وزوجها (محمد بك) ... في قوله [٤٥] :

" بُنيّ ، قبلنا طلبتك ، فأقبل نصيحتي ، واعمل بها !

بُنيّ ، لا تجعل لشيء عليك سلطانًا سوى التعاليم الإسلامية المُقدَّسة ، والأوامر الشرعية العظيمة !

بُنيّ ، طريقك الآن مُعبَّد لا أرى فيه عوجًا ولا أمتًا ، فلا تنجرف عنه ، مهما زادت ثروتك ، ومهما عزّ جاهك وعظم سلطانك !

بُنيّ ، تسمع مدحًا كثيرًا من كافة البلد وإطراءً ، فلا تغتر بذلك ، ولا تفتح للشيطان طريقًا إليك !

بُنيّ ، تلك نصائحي لم أتفوّه بها ، إلّا لعلمي بشخصك الكريم ، والطريق أمامك مستنير، الطُّهر بيِّن والفحش بيِّن ، ولك عقل يهضم كل شيء ويفهمه ، فخذ بأيهما شئت، واتَّجه إليه بعقلك الغريزي . ثم التفت إلى ابنته ، قائلاً :

بُنيَّتي ، لا تظنِّي أن هذا الفتى الشريف جاء إليك لأنك فاتنة ، أو لأن والدك ثريّ... لا ، لا تظني ذلك ، ما جاء إليك إلّا طمعًا في موافقتك له في خصاله ؛ تلك الخصال الحميدة !

بُنيَّتي ، بعد قليل ستُصبحين في بيت غير بيتك هذا ، وبجانب شاب لم تعرفيه من قبل ؛ فتجمّلي بأخلاقه الكريمة وصفاته الحميدة !

ظلّ علي بك يتفوّه بتلك النصائح الأبوية ، ينتقل منه إليها ، ومنها إليه ... " .

****

– ٥ –

كما تجلَّى هذا الخطاب التقريري في هذا المشهد الذي ضمّ الأمّ (فاطمة) ، أم محمود ، حيث اشتاقت إلى رؤية ابنها قبل أن يخطفها الموت ؛ فأخذت– في غير وعي– تستعطف الموت بالانتظار قليلاً ، راجية من الله أن يُمهلها حتى ترى ابنها ... ثم راحت تحث ابنها على الحضور وتلومه على تأخُّره عليها ، وذلك فيما يشبه الخطبة ... حيث يقول ، متدخِّلاً بعباراته الوصفية الكاشفة ؛ سواء في استهلال المشهد ، أو في تضاعيفه [٤٦] :

" أظهرت الزوجة ارتياحًا إلى هذا الدواء ، حتى لا يتأثر زوجها ، وظلّت هكذا إلى أن أخذ الليل في الانتصاف ، فاشتدت عليها وطأة المرض ، وعاودتها ذكرى ولدها ، وكيف لم تره ، وهاهي مريضة فربما لن تراه ، فجعلت تستعطف الموت حتى ترى ولدها الوحيد :

أيها الموت ، أنت حقٌّ على كل موجود ، ولابدّ من وقوعك ؛ طال الأجل أم قصر، لا تتسرّع، وأمهلني حتى أرى ولدي وألثم فاه .

ربّ الموت ، وربّ الحياة ، ربّ الضيق ، وربّ الفرج ، ربِّي وربّ ولدي ، أنت خالق كل شيء ، وموجد كل شيء ، بيدك مقاليد الأمور ، أمهلني قليلاً لأرى ولدي الذي لم تر عيني من ثمرات

الحياة سواه .

اطمأنت بعض الشيء لهذا الدعاء ... عسى أن يُجاب ، ولكنها رجعت فخافت غدرات الموت وتذكّرت حملته ، خافت أن يتعجّل بها ؛ فظلّت تنادي ولدها ، وتتعجّله في الحضور ليسبقه إليها :

ولدي : أسرع في الحضور إلى والدتك ، وانظر ما حلّ بها من نكبات الدهر !

ولدي : حياتي متوقفة على حضورك ، فلا تتوان عني ... آه ... ها هو القدر قد فاجأني ، وأنزل فتكه الذريع بي ، فلم يعد بيني وبين الموت قيد أنملة .

ثم انخفض صوتها فجأة ، وظلّت تتنفّس بسرعة ، ودقّات قلبها تتوالى ، ولكنها ظنّت أن ابنها حقيقة يسمع نداءها ... فعادت تناجيه ، ملتمسة حضوره :

ولدي : أقبل فقد نضب ماء الحياة من جسدي ، وجفّ ماء عيني ، فإذا ما ازدردت لعابي فكأنما ابتلعت حجرًا ، يخدش كل شيء يقابله ، وإذا ما أردت أن أنظر شيئًا أمامي ، فكأنما أنظر ما يبعدني بأميال وأميال . فهيّا أقبل لأروي فمي الظامئ بقبلاتك النديَّة ، وأردّ بصريٍ كما كان بدمعاتك الثمينة .

ثم اغرورقت عيناها بالدموع ، ولم تعد ذاكرتها المريضة تساعدها بتعقُّل الكلمات ، فظلَّت تتفوَّه بكل ما يجول بخاطرها :

بُنيّ : حملتك تسعًا في بطني ، حتى أنهكت قواي وأتعبت جسمي ، فلِمَ لا تجيب النداء ؟!

بُنيّ : أثرتك على نفسي ، فأرضعتك حولين من خلاصة غذائي ، حتى حلّت بي الأسقام !

بُنيّ : كم سهرت عليك مريضًا ، وبكيت لبكائك ، وتلهّفت على شفائك ، وأنا اليوم أناديك بنفسي الهزيلة ، وأرجوك في الحضور بلساني الضعيف . أمنيتي أن أراك ، وأذهب إلى الله ، وأنت تبخل عليّ بذلك ! هل هو جزائي ؟! أجبني ! أردت أن تجازيني، فتتركني كالكلاب العاوية ... آه !

بُنيّ : أقبل ولا تكن عاقًا لوالدتك ، فأنا الحزينة على عدم لقياك ! " .

****

هكذا ، ينبض هذا الحديث الطويل الباكي بما تشعر به الأم من أسى وحزن وضعف وخوف ... لا من العدم الماثل في الموت ، وإنما لحرمانها من رؤية ابنها .

وقد تجلَّت اللغة الخطابية واضحة في هذا الحديث . وهذا- أيضًا- ما أشار إليه الكاتب ، في قوله[٤٧] :

" كانت تتكلَّم هذه الكلمات بقوة لم تعهد ، كأنما هي واقفة على مَنَصَّة الخطابة ، تُلقي تلك المحاضرة أمام جمع حاشد ، أو هي واقفة أمام ساحة القضاء ... " !

بيد أن الكاتب حاول أن يُخفِّف من حِدَّة تلك الخطابية ، فأخذ يقطع السرد بعبارات وصفية، تُصَوِّر

للمتلقي ما يعتمل في صدر الأم من صراعات واضطرابات ، وتقفه على ما تعانيه من شدائد المرض وآلامه وآثاره !

****

– ٦ –

وفي سياق المشهد الذي ماتت فيه الزوجة (فاطمة) ، أخذ الطبيب يُصَبِّر زوجها (محمد بك)، ويُهَدِّئ من روعه بكلمات إيمانية ، مُذكِّراً إيّاه بحتمية الموت ، وضرورة الامتثال لقضاء الله وقدره ... في قوله [٤٨] :

" نعم لقد ماتت متأثرة بارتجاج في المخ على أثر سقوطها ، فتذرَّع بالصبر ولا تفعل ما يفعله الجُهّال ، فأنت رجل قوي الإيمان بالله وبالموت ؛ إذ كل نفس ذائقة الموت ولن يبقى إلّا وجه ربك الأعلى ، ولتعلم أنك إن صبرت ، جرى عليك القضاء وأنت مأجور ، وإن جزعت، جرى عليك القضاء وأنت مأزور ، كما قال الرسول × ... " .

****

– ٧ –

وهذه رسالة خطابية حجاجية ، أرسلها الابن (محمود) إلى أبيه (محمد) ، على أثر طرده ؛ حيث أخذ يستعطفه ، عاكسًا ما يشعر به من مرارة الظلم والذُّلّ ... حيث يقول الكاتب ، مستهّلاً بعبارات وصفية ، ومتابعًا حركة (الزمن) [٤٩] :

" مضى على ذلك ثلاثة أيام ، انتظر محمود خلالها تغييرًا في الموقف ، فلم يطرأ عليه أي تغيير ، فكتب إلى والده يستعطفه :

أي والدي: سلام من ابنك، أو ابن زوجك الفقيدة ، عليك وعلى مَن في البيت أجمعين.

سلامٌ من الولد الشريد المسكين، إلى الوالد الثري المترف .

سلام من الولد البائس ، إلى الوالد الغنيّ المُتنعِّم .

سلام من الولد المذنب دون أن يعرف ذنبه ، إلى الوالد المُتعَجِّل في الحكم ، المُتَبَرِّئ من ولده ، بلا مُبَرِّر لموقفه .

والدي : طَرَدتنِي من منزلك بقسوة ، فحنَّت عليّ الشوارع والطرقات وآوتني ، فهل هذا يرضيك ؟!

والدي : حجبت عني ، فمَنَّ عليّ المحسنون حين مددت يدي أطلب الإحسان ، فهل هذا يَسُرُّك ؟!

والدي : اتهمتني ظلمًا ؛ إذ لا أعرف التهمة ما هي ! أردت معرفتها فنهرتني ، ومنعتني من الكلام ، فهل هذا الحكم يرضي الحاكم العام ؟!

والدي : أنت تقرأ قاموس الأحكام السماوية ، أَمَاَ مَرَرْتَ على قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن

جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾؟!

أبي حيال هذا كله ، أرجو أن يكون لهذا صدى يؤثر في هذا الذنب المجهول !

وخطّ عنوان أحد أصدقائه وختمه بقوله : السائل بن البك ، الشحاذ بن الغني ... مهضوم الحق، محمود " .

****

- ٨ -

وهذا موقف خطابي تقريري ، نسجه الكاتب على لسان محمد بك في نهاية أحداث القصة ؛ حيث ذهب إلى ابنه وأسرته ، وأخذ يتحدث إليهم ... في قوله (٥٠) :

" ثم نظر حواليه ، فقال مُوَجِّها كلامه لكل جالس : أما أنت أيتها المُرَبِّية الوفيّة فلن أجازيك في الدنيا حتى لو تنازلت لك عن أملاكي وأضعافها ، وفي الآخرة فجزاؤك ممّن يقدر وقتها على الجزاء !

وأما أنت أيتها الفتاة ووالدك الراحل الكريم ، فجزاكما الله عنا كل خير وأحسن لكما الجزاء .

وأما أنت أيتها الأم الفاضلة والمُربيّة النبيلة ، وارثة زوجتي الفقيدة في الأخلاق والنبل ؛ فلله شكرًا أن أراني صورة زوجتي في وجهك المُوَقّر .

وأما أنت أيها الولد العفيف ، فالله أرجو أن يخلفك حفيدي وسميّ في وقارك وفضيلتك ولتهنآ في عيشكما الرغد وحياتكما الطيبة .

وأما أنت أيتها النفس المُتَقَلِّبة في الخير والشر ، السابحة في النور والظلم ، فاستغفري لهؤلاء الأبرار ذنبك السالف . وإذا كنت بجانب زوجتي الطيبة القلب ، فلي معها هناك في هذا العالم شؤون !

ثم تركهم ، وقد ألجمت الدهشة ألسنتهم ، وخرج هاربًا من شبح الذكريات " .

****

هكذا ، انفجر الرجل في خطبته الباكية ، النابضة بالأسى والمرارة والندم على ما اقترفه من ذنوب وآثام ، لم يستطع أمامها إلّا الهروب خجلاً وأسفًا !!

****

ومما سبق عرضه يتبيّن أن الخطاب التقريري– في عمومه – يبرزه المؤلف على ألسنة شخصياته الذين دارت عليهم الأحداث ، مُتدخِّلاً ببعض العبارات الوصفية الكاشفة الخلجات النفسية ، مما خفّف من تأثيرها السلبي على المسار الفني للأحداث .

****

٢- التصوير التجسيـدي :

وكما اعتمد الكاتب على الخطاب التقريري ؛ بمختلف صوره ، فإنه استند أيضًا إلى التصوير التجسيدي ؛ بمختلف أبعاده ... سواء أكان للمكان أم للشخصيات ، ماديًّا أم نفسيًّا، جزئيًا أم كليًّا ... وقد تجلّى ذلك فيما قدّمناه سابقًا !

ونُعاود ما يُمَثِّل هذه الصورة ، في الآتي :

- ١ -

استهلّ الكاتب هذا البناء السردي ، مصوّرًا تلك الطبيعة الريفيّة الساحرة ، التي احتضنت قصر (محمد بك) ؛ حيث وفد إليه في وقت الغروب هؤلاء الفقراء والمساكين على عادتهم الأسبوعية ، لينالهم إحسان (محمد بك) ... وذلك قوله ، واصفًا الحركة المصاحبة لهؤلاء وأولئك ، وهيئتهم ومجالسة (البك) لهم ، وأثرها في نفوسهم ، ومتابعًا عنصر (الزمن) [٥١] ، ومعتمدًا على الصورة البصرية والحركية [٥١] :

" الهواء ساكر، والجور مقرور ، والسماء صافية إلّا من بعض قزع السحاب المتفرقة...

كل شيء التزم الصمت ، ووضع فوق ناظريه (مُكبّراً) يترقّب تلك الواقعة الحامية القائمة بعد قليل بين الليل وأنصاره ، وبين النهار وأجناده . وبينما هم كذلك في صمتهم وترقُّبهم ؛ إذ صاح وجه عروس الفَلك فارس أسود مدلهم ، صيحة أرعبت قلبها ، وذهبت بقوتها المغناطيسيّة، ذهبت حُمرتها الورديَّة ، وعلتها صُفرة الفناء ، وشارة الموت.

في ذلك الجو الهادئ الساكن ، الخالي من حرارة الشمس ولظاها ، وبرودة الصقيع وشدّتها ، وفي بلدة (...) على شاطئ النيل ، تربَّع ذلك القصر العظيم على عرش مُلكه الشاسع ، المملوء خضرة وأزهارًا ؛ يُمتّع ناظريه بتلك الموقعة الحاسمة ، وأفراد الطبيعة بجواره . ربض ذلك المُلك على الشاطئ ، يكللِّه تاج من الأنوار الساطعة ، فإذا ما هبّ النسيم ، تمايلت عليه تلك الأشجار هفهافة ، تحمل بين ثناياها أزكى الروائح ، وأطيب العطور .

كان ذلك القصر الفخم ، ينتمي إلى أحد عظماء تلك البلدة ، وأثريائها الكبار .

في هذا الوقت (وقت الغروب) بدأت أسراب من الفقراء المُدقَعين المساكين البائسين تترى وتتوالى، مُيَمِّمين شطر ذلك القصر .

ولج هؤلاء الأقوام بما عليهم من أطمار بالية وأثواب فانية ، أبواب القصر ، واتخذوا مجالسهم فوق الأرائك المعدّة لهم .

هذه هي عادتهم الأسبوعية ، يأتون جميعًا إلى هذا المكان ، لينالهم عطف ذلك المحسن الكبير ، ويشملهم بإحسانه ، وها هو قد خرج لمقابلتهم بشخصه ، يبسم في وجوههم ، ويضحك لضحكهم ،

ويؤاكلهم ليخفِّف من ويلاتهم ، ويستأصل بذرة البؤس والشقاء الكامنة في نفوسهم ... !!

****

– ٢ –

كما وصف تلك الحركة المصاحبة لسفر (محمود) إلى القاهرة ، حيث دراسته الأزهرية ... وذلك قوله ، مقابلاً بين مظاهر الفرح على أهل البيت في وداعه ، وبين حزن الأم وبكائها ، في صورة حركية بصرية (٥٢) :

" في ذلك اليوم ، اضطربت أحشاء المنزل ، وتحرّكت أعضاؤه ... الخدم يهرولون ، فهذا يحمل عِدْل الملابس ، وذاك حقيبة الكتب ، وغيره ، وغيره ، يُودعون كل ذلك جوف العربة القابعة أمام المنزل تنتظر (محمود) لتوصله إلى المحطة .

يا له من يوم حافل ! يتذاكره كُلّ مَن في القصر ؛ الزغاريد تملأ السَّراي ، فيعمّ الفضاء رجعُها ، والأجواء صداها . وها (محمود) يخرج متوَّجًا بالفخار ، ومكلَّلاً بأفضل شعار (الجُبّة والعمامة) ؛ ذلك الزي الذي تعلو صاحبه المهابة والوقار ، لتتلقَّفه الأكفُّ من يد إلى أخرى ليودِّعُوه ، ومن لسان إلى لسان ليهنِّئوه . وحينما يصل إلى العربة يصعدها باسم الثغر ، بادي المُحَيّا ، وضّاء الجبين ، فتبتلعه في جوفها .

وحينما تبدر شارة بدء مغادرة هذا المكان تخرّ أمه الوالهة المُعَذّبة باكية ، كأنما قد انتزعوا فؤادها من جسمها ، وأودعوه هذه العربة ! " .

****

– ٣ –

ومن الصور النفسيَّة المُعبِّرة ، ما يتجلّى في هذا المشهد ؛ حيث استند الكاتب إلى الألفاظ المُمَزَّقة والمُكَرَّرة التي تُعبِّر عن مدى اضطراب الشخصية وانعدام تركيزها ... في قوله، على لسان الأم (فاطمة) وهي تحتضر ، مخاطبة زوجها ، وراجية رؤية ابنها (٥٣) :

" ... أقسمت عليك بالله إلّا ما أخبرتيني بالحقيقة ! هل لا زلت تُعانين المرض ؟ تكلمّي ، فتحركت شفتاها ببطء ، وقالت في فتور : ولدي ... أُر ... أُريد أن أُر ... اه قبل أن أم ... وت... أن ... أأموت قبل أن أراه !! رأس ... رأسي يكاد ينفجر ...

أريد ولدي أريـ ...ده ، فأسرعوا في إحضاره ، إن أردتم لي الخير قبل أن أموت !

ولدي ... لا تبخلوا عليَّ بإحضاره ، أحـ ... ضروه ، إني أحـ...تضر ، أحضـ ...روا ولدي... لا تضنُّوا عليّ به ... آه ... ولدي ، احضر لترى بعينك ما ... فعلوا بي ... في غيبتك ، ولدي... ولدي بلَّغوه سلامي .. سلامي إليه ... وصفحه عني ، بلغ ... بلغه وصيتي ... آه ولدي ، ها أنذا

أموت قبل أن أراك ... أستغفرك ، فاغفر لي أموت قبل أن تراني ... ولدي ، وصيَّتي ، ولدي أمانتي في عنقك إلى يوم القيامة حافظ عليها ... آه ولدي .

قالتها ولم تُعدها. كانت هذه الجملة آخر كلامها في عالم الأحياء ... " .

****

– ٤ –

وهنا أخذ الكاتب يستقصي في وصفه المادي لهذا المنزل الموحش المتهالك الذي استقبل فيه (محمود) الفتاة (فاطمة) ، عاكسًا ما عليه الفتى من فقر وبؤس ... في قوله ، مستندًا إلى الصورة الكنائية والتشبيهيَّة [٥٤] :

" ثم استأنفا السير إلى المنزل ، وما هي إلّا لحظات حتى كانا أمام منزل أغارت عليه الأيام ؛ حتى بدا كأنه قبرُ مُحَطَّم ، أتى عليه الزمن بضرباته وويلاته ، فديست معالمه، وانمحت زينته كأنها النار أتت على الحطب ، فبدا كأنه جسمُ رجل شَوَّه الجرب شكله ، وذهب لونه ، فلم تعد لتقدر على تحديد حقيقته .

هذا هو المنزل الذي وقفا أمامه ، وهذا هو منزل محمود ، الذي ستأوي إليه الفتاة ليلها ، وتضطجع فيه بجنبها !

مدّ محمود يده ، فدفع الباب المتهالك ، دفعة واحدة ، فانفجرت شفتا المنزل ، صارخًا عن فم مضعضع الأركان ، مُكَسَّر الأسنان ، لا تجد به حجرة تحرَّرت ربقتها من عبودية الزمن ، فكما واجهك المنزل تواجهك الحجرات ..." .

****

– ٥ –

كما اعتمد الكاتب على (المفارقة التصورية) في رسم شخصياته وكشف ملامحها... ومن ذلك وصفه شخصية (محمد بك) في الشطر الأول من حياته ؛ حيث كان الشاب الثري الشريف ، المتحصِّن بالعفة ، السخيّ الكريم ، المحسن لأهل بلدتِه ، الذي تغلَّب على الشيطان... وذلك قوله[٥٥] :

" كان محمد بك صاحب هذا القصر، لا زال في مقتبل العمر ؛ إذ لم يتجاوز السابعة والعشرين بعد .

كان هذا الرجل وما يقوم به من الأعمال ، موضع إعجاب ودهشة تلك البلدة جمعاء؛ رجل كهذا في عنفوان الشباب ، يصنع لنفسه سجنًا من الفولاذ بحيث لا تجد منفذًا فيه ! رجل كهذا، له من المال والضِّياع ما يفوق ثروة أهل البلدة جميعهم ، يقيم بين نفسه وبين الغواية حِصنًا ترتد عنه أقوى الجيوش ، وأعظم القواد ! رجل كهذا ، اجتمعت له عوامل الشر والفتنة ؛ شباب غضّ ، ومال جمّ ،

ومع ذلك لم يزده إلّا تقرُّبًا إلى الله !

هذه الخواطر ، وتلك الصفات بعض ما كان يجيش بصدور أهل البلدة ؛ شباب ، ونساء ، وشيوخ .

تألبَّت عليه العصابات بقيادة (إبليس) ، وظلُّوا يُمهِّدون له الطريق إلى الغواية ؛ طريقًا من الشوك مُغَطَّى بأوراق الورد ... يؤدِّي إلى مسرح كبير ، جداره اللهب ، ورائحته رائحة الجحيم... ظَلُّوا يَتمَسَّحون في أعتابه ، ويتحايلوا عليه بأنواع الحيل ؛ عسى أن يفلت الزمام من يده ، فيسقط في الشَّرَك المنصوب ، ولكنهم خرجوا من تلك الموقعة بِخُفيّ حنين !

كان ذلك كله رحمة من الله به ، وشفقة عليه ، فلم يجدوا في ذلك الحصن المضروب حوله ثغرة يَنْفُذُونَ إليه منها ، ولكنّ إبليس شقّ عليه أن يُهزم بتلك السرعة ، فقام بجولة أخرى ، وضرب حصارًا حوله ، يصحبه جيش فتّاك قوي ، من الفتيات اللاتي لا يألون جهدًا في سبيل المال ، ولكنّ الشاب أحسّ بذلك قبل أن يصل إليه أذاهم ، فرأى إخمادًا لتلك الفتنة ، وانتصارًا على تلك الحملة ، وزيادة في التحصين ، أن يبحث عن زوج من قوم أطهار ، لم يمسّها دنسٌ ولا فُحش ، زوج اجتمعت فيها عناصر التقوى والعفاف ، تصلح لردّ هجمات العدو الشديدة ...

وبينما هو غارق في أفكاره بمن أقترف ؟ ومن هي هذه التي توافقني ؟ أخذته سنة من النوم، فرأى شيخًا يهتف به : لا تُنهك نفسك في التفكير ، فقد اخترنا لك (فاطمة)... فاطمة ! ومن تكون فاطمة ؟ ولِأي شيء اخترتموها ؟!

هي فاطمة ابنة علي بك الدسوقي ، اخترناها لتكون لك زوجة ..." .

****

– ٦ –

هكذا ، اعتمد الكاتب على (السرد الوصفي) في تصويره شخصية (محمد بك) في الشطر الأول من حياته ؛ صورة إسلامية مشرقة !!

ولكن سرعان ما تبدلَّت هذه الصورة، وتحوَّلت الشخصية السويّة المثالية ، إلى شخصية شاذة منحرفة ؛ فبعد أن ماتت زوجه الطاهرة ، تمكَّن الشيطان من نفسه ، فتزوَّج من شابة لعوباً ماكرة ، يكبرها كثيرًا ، مستسلمًا لجماح شهوته ، فتلاعبت به ، وأعمت قلبه وعقله ، وأوقعت بينه وبين ولده ، فطرده بقسوة ، وقد تحوَّل قصره ملجأ الفقراء وبيت الخير ، إلى مرتع لعبيد الهوى ، ومأوى للانحلال الشيطاني .

وقد عبَّر الكاتب عن ذلك ؛ مُصَوِّرًا غضب الزوج ومكر هذه الزوجة ، ومدى انخداع الزوج فيها ، واستسلامه لرغباتها ، وشعوره بالضعف نحوها ... مما انتهى به إلى الفقر والبؤس... في قوله ، مازجًا بين ثلاثية (السرد/ الحوار/ الوصف) [٥٦] :

" طرد محمد بك ولده ولم يتركه يتفوّه بكلمة ، بل تبرّأ منه وصفق الباب في عقبه ، وهو غاصب ساب ، يهدر كالبعير إذا ثار ، أو كالبركان إذا انفجر .

ثم دخل حجرته وظلّ جالسًا ولا زالت سيما الغضب بادية على وجهه ، وقد امتلأت ، عليه الحجرة أفكارًا تلفّ وتدور .

دخلت زوجه الماكرة ، وقد خافت أن يُفكِّر في كذبها فقابلته ، وقد تجهَّمت أساريرها : يا سيدي الباشا ، ماذا فعلت ولِمَ كل هذا الغضب ؟! أمن أجلي أنا ؟ يا لي من بائسة ! ليتني مِتّ قبل هذا حتى لا أراك تجلس هذه الجلسة المحزنة من أجلي ! من أجلي أَنًّا تجلس هكذا؟!... لا، فكّ هذه العقدة المعتلية جبهتك . ثم لعبت على شفتيها تلك الابتسامة الخلاّبة ، ومدّت يدها وقادته ومشت ، وهي تقول- إذ وجدت لكلامها أرضًا خِصبة تنبت - : سيدي البك ، لي حاجة عندك أودّ تحقيقها .

- لبيك حبيبتي !

- أريد أن تمحو فكرة حضور هؤلاء (تعني الفقراء) ، فنحن الآن أحوج إلى إنفاق ما يأخذون على لذائذنا ، فقد كفانا إنفاقًا عليهم .

– فنظر إليها ، قائلاً : وهل يا حبيبتي هناك من يُمانع في شيء تطلبينه؟! لك ما أردت .

فنظرت إليه وقد ابتسم ثغرها بسمة ظاهرها له ، ولكن حقيقتها أنها بسمة الظفر والانتصار .

- ثم قالت : سيدي الباشا نحن مدعوّون هذه الليلة من فلان باشا ، إذ يقيم حفلة لعيد ميلاد زوجته ، فهل أعدهم بحضورنا أم أعتذر لهم ؟!

– هدى ، تستشيرني حتى في الحفلة ؟! .. لا .. افعلي ما تشائين ، فأنا طوع أمرك ، لا تفكري أن ذلك اليوم الذي أُغَيِّرُ لك فيه رأيًا سيأتي .

فنظرت إليه ثم ضمّته إلى صدرها في حنوّ، حتى تقابلت الشفاه ، وتكلَّمت العيون!.

كان محمد باشا يشعر نحوها دائمًا بالشيخوخة تَدِبُّ في جسمه ، والصِّبا يَدِبُّ في جسمها ، فيعاملها كأب يداعب طفله الصغير حتى لا تغضب ، فتحسّ بذلك الإحساس نحوه .

مضى على زيارتهم لهذه الحفلة يومان ، قالت عقبها : نريد أن نقيم حفلة ليردّوا لنا الزيارة ، فماذا تقول ؟

- قلت لكِ افعلي ما شئت !

بدأت في دعوة أصدقائها الأقربين ، وصديقاتها ، ثم أقيمت الحفلة على أحدث طراز، حيث تخلَّلتها الخمور وغيرها من كل ما يُغضب الله ويسخطه ... لم يشرب الزوج في تلك الحفلة خمرًا، بل امتنع، فعملت كل جهدها في إقامة حفلة أخرى أوسع منها ، وهكذا وهكذا ، أصبحت غريزة لا

يتسنّى لهم تركها ...

حتى نفد المال من يده ، فرهن الضياع واتبعها بالقصر ، حتى أتى على جميع ما كان عنده ، وعتمت ظُلمة الطريق .

وسرعان ما ملّت مُكثها مع ذلك الفقير، فما لها والعيش معه !! ...

كانت تلك الساعة أرهب وقت في حياته الزوجية ، بل في حياته كلها ، عندما أراد أن يلجأ إليها علّها تُخَفِّف من ويلاته ، ولكن على غير انتظار منه ، بل على غِرّة ظهرت أمامه تلك الشاة الوديعة وقد خلعت فراءها الذي تنكّرت فيه ، فظهرت أمامه ذئبة مفترسة .

– محمد بك : آه ... لقد تَغيَّر كل شيء وتنكَّر لي ! رحماك يا ربي ، كيف ذلك ؟! أنا لا أصدق، تَكلَّمي ثانية ، تفوّهي بما قلت !

– هدى : أقول لك : أنا لم أعد لأنفعك ، فبينما بلغت أنت نهاية العمر وأرذله ، لا زلت أنا في مقتبل العمر، فاتركني وشأني !

وهزّت كتفيها في استخفاف وازدراء والسيجار في فمها، ثم همّت بالانصراف...".

****

على هذا النحو ، استطاع الكاتب أن يُقدِّم تلك (المفارقة التصويرية) في تجسيده تلك المتغيّرات التي أحاطت بالشخصية ؛ حيث تحوَّلت حياته من الشباب الغضّ الثري المتديّن المحسن ... إلى الشيخوخة والفقر والضعف والانحلال !

****

– ٧ –

ومن هذه المفارقة التصويرية في حياة (محمد بك) ... أخذ الكاتب يسترسل في تصويره المشهد نفسه ، مُبيّنًا ردّ فعل هذا الزوج البائس المخدوع حيال زوجه الماكرة ، حيث قابلته بلا مبالاة قاسية، مُعبِّرة عن ضيقها بحياتها معه ... وذلك قوله (٥٧) :

" ثم همَّت بالانصراف ، فاستوقفها قائلاً – وقد اختنق صوته – : هدى .. هدى ، أين الوفاء ؟! لِمَ كل هذا ؟! لقد كانت إذن ثقتي بك تلك المدة ثقة عمياء ؟! لا يا هدى لا تجعليني أظنّ ذلك ! فمطت شفتيها ، ثم رفعت حاجبيها ، والدخان يتصاعد من فمها أشبه بسحابة حجبت ضوء القمر ! ثم قالت : عجيب منك هذا الكلام ، إنك لا تلبث أن تثور عليَّ وتطردني لأُشرّد في البلدان والشوارع ! كما فعلت بولدك ... " .

****

– ٨ –

وهنا أخذ الكاتب يستطرد في تصويره مدى ضيق تلك الزوجة الماكرة بحياتها مع زوجها ؛ حيث وصفت نفسها بالطائر الذي حبسه صاحبه في قفص ذهبي، ولكنه سرعان أن انطلق ليتنسَّم حريته ... وذلك قوله ، على لسان الزوجة ، مخاطبة زوجها في قسوة (٥٨) :

" لم يعد أمامي سوى ذلك الباب لأتنسَّم هواء الحرية ، في أحضان شاب يروي ظمأ صدري الذي أوشك على الاحتراق من شدة الحرارة ؛ طائر حبسه صاحبه في قفص من ذهب واشترى له أليفًا ليقضيا حياتهما سويّاً . غَرّر ذلك الرجل بالطائر حتى ظنّ أن ذلك التمثال حقيقة ؛ فرضي بالسجن ظانّاً أنه سيحقق تلك الحياة التي ينشدها بجانب هذا الطائر الوهمي، ولكن يا للأسف لقد وجدها حياة بؤس وشقاء . فبينما هو ينام في أحضان طائره الذهبي الجميل ، إذ به يُحسّ بسهم ناري قد اخترق صدره ليحرق فؤاده ، فظلّ في هذا العذاب المحيق حتى إذا كان يوم عاصف شدت الريح حملتها على ذلك القفص ، فانفتح بابه أو كُسر... كل ما هناك أنه وجد الطريق إلى الحرية خال من أعين رقباء ، وجد خارج ذلك القفص ماء عذبًا فراتًا ، يبرق أمام عينيه ، ماذا يفعل أمام ذلك؟ يتقيَّد بتلك التقاليد الرجعية ، ويتمسّك بالوفاء حتى يُتعس نفسه مع صاحبه الميِّت الفاني ؟! كلاّ يا سيدي البك لم يكن ليفعل ذلك إلّا إذا كان طائرًا أحمق ، أما طائرنا هذا فعندما وجد الطريق آمناً من كل عائق ، ومنفذ القفص قد فقد كل سيطرته ، خرج من هذا المكان الموحش، كما قلت ، ليتنسَّم هواء الحرية ... " .

****

– ٩ –

ويُتابع الكاتب وصفه هذا المشهد التمثيلي ، مُصَوِّراً ردّ فعل الزوج لما وصفت به الزوجة نفسها ! حيث أكمل ما قالته ، ومُبَيِّناً ردّ فعل الزوجة الانتقامي تجاه الزوج ... في قوله (٥٩) :

" ثم همّت بالخروج ، ففطن الزوج لما ستفعل ، وبدون أن يأبه لما قالت ، هجم عليها في خطوات ثابتة ، وفي لحظة كان يقف في وجهها ، حائلاً ؛ يُتَمِّم قصتها : ثم استيقظ صاحب القفص قبل هروب الطائر ، فأصلح بابه وأغلقه في وجه كل فار ! أتعلمين كيف فعل ذلك ؟! فعل هكذا .

ثم أغلق الباب ، ومَدّ يده لتسير معه إلى الداخل، ولكنها نظرت إليه شزرًا ، وقد ومض في مخيلتها بريق خاطف ؛ لا زالت في يدها ورقة تقذف بها علّها تُغضبه فيطردها ؛ تعترف بقصتها مع محمود ! :

– هدى : اسمع أيها السيد المحترم ، أما عن عدم خروجي من هنا فهذا لن يكون ؛ إذ أنت وهذا البيت مصدر الشقاء لي ، فمن يوم جئت هنا قمت بخيانة شنعاء أردت إخفاءها عليك ، ولكنك تُصِرُّ على إفشائها ، سأسردها عليك : أتتذكر أن لك ابنًا كان معنا هنا في وقت ما ... أتذكره جيدًا؟!

– محمد بك : نعم ، وكيف لا أذكره وهو وحيدي الخائن صاحب ذلك الحادث الذي لا زال يحزّ في نفسي ولن أنساه على مرّ الأيام !

– هدى : كلّا أيها السيد ، إنما أنا المذينة الخائنة ، أمّا هو فالشريف الأمين الذي لم يأبه بي حينما هدّدته بعذاب أليم ، بل كان يقاسي مني ومنك آلام البؤس ومرارة الظلم ، وأنا السبب في كل ذلك ! أنا الخائنة ! أنا هي تلك !!

وأسبلت عينيها ، وقد اعتراها شيء من الفزع ... فبعد أن كان مقصدها من ذلك ، إثارته حتى يطردها فقط ، إذا بها تتغيّر فجأة ، وقد تقلّصت سحنتها وتغيَّرت نبرات صوتها ، وبدون أن تشعر سردت القصة على حقيقتها ، ذاهلة العقل شاردة اللُّب !...".

****

– ١٠ –

ثم انتقل الكاتب ، مصوّرًا أثر اعتراف الزوجة القاسي في الزوج ؛ حيث تنازعته مشاعر الأسف والندم والغضب ... في قوله (٦) :

" ظلّ الزوج المحروم من النعمة الزوجية جالسًا ، وقد اعتراه ارتباك عقلي ؛ وهو يستمع لهذه القصة : يا الله ! كيف حدث كل ذلك ، وأنا في غيبوبتي هذه ، لا أدري من أمري شيئًا ؟! لك الله يا محمود ، يا من ذهبت ضحية المحتالين ، عبيد الشهوة والمادة !

وأنت أيتها الخائنة الغادرة ، كيف استحللت هذه الفعلة المنكرة ؟! أما خفت الله وأنت تقومين بهذه الجريمة ؟! أقلبت الأوضاع هكذا ، وجعلتِه المعتدي بينما هو الشريف ، وجعلتِه سالب العرض بينما هو المحافظ عليه بدمه وحياته !! أُفٍّ لك من شِرّيرة دنيئة !! ...

تُبّاً لك أيتها الماكرة ، اخرجي يا قرينة السوء ، فقد كفاك ما حدث ، اخرجي أيتها الشيطانة الماكرة !! ... " .

****

– ١١ –

ويختم الكاتب وصفه هذا المشهد المثير بين الزوجين ، مُصَوّرًا ما اتَّسمت به تلك الزوجة الخائنة من استخفاف تجاه طرد زوجها إيّاه ... وذلك قوله، معتمدًا على الصورة البصرية والحركية (٦١) :

" رأت ثائرته تكاد تهدأ ، فعملت على إثارتها ثانيًا ، حتى تخرج ، فقالت– وقد أشعلت سيجارًا آخر– : أتطردني يا سيد محمد ! ها .. ها ؛ فنهض واقفًا ، وأراد أن يَنْقَضّ عليها : هيا اخرجي ... نعم اخرجي .

فمشت في تُؤدة واطمئنان حتى إذا وقفت أمام الباب ضحكت مقهقهة ، وهي تقول: وداعًا أيها السيد، إلى حيث أجد من يسقيني وأسقيه ، لا إلى من أسقيه من شبابي وأسكب له دم حياتي ، ليلتهمه . بينما هو يبخل عليَّ بقطرة واحدة ، حتى ذويت وذبلت !

وداعًا أيها السيد ، حيث أجد الشباب الغضّ ، فتتقابل سويًّا ، ونتعانق مليًّا ، فكم راودني وراودته ، ولكن كان المانع أنت ومالك ! وهأنذا حُرّة كالعصفور ، يَتنقّل من غصن إلى آخر!...

وداعًا ... وداعًا .

ثم فتحت الباب وخرجت منه إلى غير أوبة " .

****

على هذا النحو ، اعتمد الكاتب في نسجه هذا المشهد المثير على هذا المزيج الأسلوبي بين الحوار، والوصف المادي والنفسي ، والتصوير التمثيلي والحركي ... من كل ما أضفى الإثارة والتأثير !!

****

تعقيـب :

وعلى الجملة ، فهذه كانت طائفة متنوعة من قيم البناء السردي في قصة (محنة ... ومنحة) ، فيما بين الثلاثية : (السرد/ الحوار/ الوصف) ... بين الخطـاب التقريـري ، والتصويـر التجسيدي... بين الحوار الداخلي (المونولوج) ، والحوار الخارجي (الديالوج) ... بين (الحدث/ الشخصية/ المكان/ الزمان) ... بين الوصف المادي ؛ حيث الطبيعة وغيرها من المدركات المادِيـَّة ، والوصف النفسي للأحاسيس والنوازع ، وكوامن النفس ... من كل ما أخذ المتلقي إلى عالم القصة ، مُترقِّبًا ماذا سيحدث !!

وقد استطاع الكاتب أن يُبرز لنا (الفكرة) من جملة ما اعتمد عليه من أدوات فنية ؛ حيث كانت (الفكرة) في تلك الثنائية الخالدة ، التي فاض بها عنوان القصة (محنة ... ومنحة) ، وهي السائدة في نفس الكاتب والمتلقي على السواء ؛ فيما بين : الخير/ الشر .. السعادة/ الشقاء .. الفضيلة / الرذيلة ... مما يؤكد قدرته على نسج مختلف عناصر هذا البناء السردي ، توظيفًا لتلك الفكرة .

****

وعن أثر سيادة عنصر ما في البناء السردي ... يقول الدكتور/ محمد يوسف نجم[٦٢] :

" وسيادة عنصر ما في القصة ، تظهر للقارئ في شكل من الأشكال التالية ، وهي : سيادة الحوادث ، وسيادة الشخصية ، وسيادة البيئة أو الجو ، وسيادة الفكرة . ولابد من أن يخرج القارئ ، من القصة الناجحة ، وقد غلب على نفسه عنصر من هذه العناصر ، أمّا إذا خرج منها بمزيج

مختلط من الحوادث والشخصيات والأفكار ، فمعنى ذلك أن الكاتب أخفق في إبراز أحد هذه العناصر ، وفي تغليبه على غيره . ولكنه إذا أحسّ بأنه خرج من القصة ، وهو يتذكَّر شيئًا ملك عليه نفسه من جميع جوانبها ، واستأثر بإحساسه وتفكيره ، وأسر لبَّه ، وشغل جوّ القصة العام ، وانتظم حوادثها وشخصياتها ومشاهدها... فمعنى ذلك أن القاص استطاع أن يرسم لنا صورة من الواقع ، أبرزها بما له من قدرة على التعبير المصوّر المحكم ، واختار خطوطها وألوانها ، من زحمة الحوادث والشخصيات ، التي تعرضها علينا الحياة الإنسانية التي تحيط بنا " .

****

وكما أوضحنا أن عنصر (الفكرة) في تلك القصة هو الذي غلب على بنائها ؛ حيث تلاحمت عناصر القصة في معالجة موضوع اجتماعي إسلامي، امتزج فيه الواقع بالمثالية الفاعلة في تلقائية فطرية ، لم تتأثر بالمذهبيّات الغربية ، على الرغم من توزُّع كثير من الكُتّاب الكبار في تلك المرحلة بين النزوع (الكلاسيكي) القائم على تمجيد أخلاقيات وعادات بعينها ، والنزوع (الرومانسي) القائم على الفرار من الواقع والقبوع في أكناف السلبية ، وطلب الراحة في المثاليّات الأفلاطونية التي لا تُنال ، أو النزوع الواقعي (الماركسي) بما يقوم عليه من ثوريّة مُحَطِّمة ، تزرع الشِّقاق بين عناصر المجتمع وتتعهّده حتى يفتك عنصر بآخر فيقضي عليه أو يُضعفه ، تمهيدًا لميلاد عنصر جديد ... وهكذا![٦٣].

****

وبعد...فإذا كانت هذه القصة هي باكورة انتاج الدكتور إبراهيم عوضين الإبداعي، وهو في مطلع حياته ، إذ لم يبلغ من العمر العشرين عامًا ، فإنها تكشف عن مقدرة إبداعية خلّاقة ؛ حيث توَفَّر له– كما وضح لنا– العديد من الأسباب الفنيَّة المتوهِّجة ، بما يتناسب مع مرحلته العُمْريّة !

وكما سبق أن ذكرنا ، أنه على الرغم من هذه المقدرة الإبداعية ، فإنه لم ينتج في المجال الإبداعي القصصي أو الشعري ، غير هذه القصة وبعض المقطوعات الشعرية ؛ إذ لم يجد في هذا المجال الإبداعي ما يُعَبِّر به عن مكنوناته الخبيئة في أعماق نفسه إزاء الواقع والحياة ؛ ولذا فقد تحوَّل إلى النثر المقالي ؛ ذلك اللون الذي رأى أنه الأسرع مواجهة لما طرأ على المجتمع من قضايا ومشكلات ومعارك متشابكة ، ولا سيما في التصدِّي لأعداء الإسلام واللغة العربية !

****

الهـوامـش

١- ولد الكاتب سنة ١٩٣١م ، وتوفي سنة ٢٠١٢م ، وشهدت حياته طائفة ضخمة من المقالات والمؤلّفات في مختلف الموضوعات والقضايا الإسلامية ؛ الأدبية ، والاجتماعية ، والفكرية ... لمزيد من التفصيل في حياة الكاتب ، يراجع كتابنا : الدكتور إبراهيم عوضين- ناقدًا أدبيًّا ، نشر مطبعة الشروق بالراهبين ، غربية ، ط٢ – سنة ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م .

٢- لمزيد من التفصيل في قيمة الحدث وأثره في البنية السردية ، ينظر : فن القصة- محمد يوسف نجم- دار بيروت للطباعة والنشر- سنة ١٩٥٥م ، ص١٠٣- ١٠٧، دراسات في القصة العربية الحديثة- د. محمد زغلول سلام- منشأة المعارف بالإسكندرية – سنة ١٩٨٣م ، ص١٣ ، ١٤ ، بناء الرواية- د. سيزا قاسم- مكتبة الأسرة ، القاهرة – سنة ٢٠٠٤م ، ص٣٥- ١٧٧ ، الأدب وفنونه- د. عز الدين إسماعيل- دار الفكر العربي ، ص١١٨ .

٣- لمزيد من التفصيل في أهمية الشخصية وأنماطها وأثرها في البنية السردية ، ينظر : فن القصة ، ص٤٧-٥٥ ، تطور الرواية العربية الحديثة- د. عبد المحسن طه بدر- دار المعارف ، القاهرة، ط٥ – سنة ١٩٩٢م ، ص١٤٦- ١٥٢ ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص١١- ١٣ .

٤- لمزيد من التفصيل في أبعاد هذه الدعائم : (السرد/ الحوار/ الوصف) ، ومدى تداخلها في البناء القصصي ، ينظر : فن القصة ، ص١١٢- ١١٥ ، تطور الرواية العربية الحديثة ، ص١٦٧- ١٧٣، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص٣٢- ٣٦ ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي- د. حميد لحمداني – المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١- سنة ١٩٩١م ، ص٤٥- ٤٩ ، ٧٨- ٨١ ، دراسات في نقد الرواية – د. طه وادي – دار المعارف ، القاهرة ، ط٣- سنة ١٩٩٤م ، ص٣٩- ٤٨ ، القصة بين التراث والمعاصرة – د. طه وادي- إصدار نادي القصيم الأدبي ، ط١- سنة ١٤٢١هـ ، ص٢٠٤- ٢٠٩ ، بناء الرواية ، ص ١١٠- ١١٧ ، الحوار القصصي – تقنياته وعلاقاته السردية . د. فاتح عبد السلام – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط ١- سنة ١٩٩٩م، ص٤١- ١٥٠، ٢٣٩- ٢٧٢ .

٥- قصة (محنة ... ومنحة) – إبراهيم محمد إسماعيل عوضين – المطبعة اليوسفية بطنطا ، ط١- سنة ١٣٧٠هـ – ١٩٥٠م ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

٦- القصة ، ص ٤٧- ٥٠ .

٧- القصة ، ص ٥٠ .

٨- القصة ، ص٥٦- ٥٨ .

٩- القصة ، ص ٥٨،٥٩ .

١٠- القصة ، ص ٦٦- ٦٩ .
١١- القصة ، ص٦٩- ٧٢.
١٢- القصة ، ص ٧٢ .
١٣- القصة ، ص ٧٤ ، ٧٥ .
١٤- القصة ، ص ٧٥- ٧٩ .
١٥- القصة ، ص ٧٩- ٨٢ .
١٦- القصة ، ص ٨٢-٨٤ .
١٧- القصة ، ص ٨٤ .
١٨- القصة ، ص ٨٦- ٨٨ .
١٩- القصة ، ص ٨٨، ٨٩ .
٢٠- القصة ، ص ٨٩- ٩١ .
٢١- القصة ، ص ٩١ ، ٩٢ .
٢٢- القصة ، ص ٩٣- ٩٥ .
٢٣- القصة ، ص ٩٥ .
٢٤- القصة ، ص ٩٥- ٩٧ .
٢٥- القصة ، ص ٩٩ .
٢٦- القصة ، ص ١٠٠ .
٢٧- القصة ، ص ١٠٠- ١٠٣ .
٢٨- القصة ، ص ١٠٥- ١٠٧ .
٢٩- القصة ، ص ١٠٧- ١١١ .
٣٠- القصة ، ص ١١١، ١١٢ .
٣١- القصة ، ص ١١٢- ١١٤ .
٣٢- القصة ، ص ١١٦ .
٣٣- القصة ، ص ١١٦، ١١٧ .
٣٤- القصة ، ص ١١٧ – ١٢٢ .
٣٥- القصة ، ص ١٢٢- ١٢٥ .
٣٦- القصة ، ص ١٢٥- ١٢٧ .
٣٧- القصة ، ص ١٢٧- ١٢٨ .

٣٨- القصة ، ص ١٤٣- ١٤٥ .

٣٩- لمزيد من التفصيل في قيم المكان والزمان- بمستوياتهما المختلفة- وأثرهما في البنية السردية ، ينظر : فن القصة ، ص١٠٣- ١٠٧ ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص١٣، ١٤ ، بناء الرواية ، ص ٣٥- ١٧٧ ، الأدب وفنونه ، ص١١٨.

٤٠- القصة ، ص ١١، ١٢ ، ١٦، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣١-٣٣، ٣٧ ، ٥٣ ، ٥٦، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٩، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ١٤٥ ...

٤١- القصة ، ص ١٠، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١، ٥٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٦، ٩٧ ، ٩٩، ١٠١ ، ١١١، ١١٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ...

٤٢- القصة ، ص ١٥، ٢٢، ٢٨، ٣٦ ، ٥٢، ٥٥، ٦٣، ٧٣ ، ٨٥ ، ١٣٢ ، ١٤٦...

٤٣- القصة ، ص ١٣، ١٤، ١٧، ١٩، ٧٢، ٧٧، ٨٨، ٩٠، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٦...

٤٤- القصة ، ص ١١- ١٤ .

٤٥- القصة ، ص ١٩، ٢٠ .

٤٦- القصة ، ص٣٣- ٣٥ .

٤٧- القصة ، ص٣٥ .

٤٨- القصة ، ص ٤٢، ٤٣ .

٤٩- القصة ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

٥٠- القصة ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

٥١- القصة ، ص ١٠، ١١ .

٥٢- القصة ، ص ٢٧ .

٥٣- القصة ، ص٣٩ ، ٤٠ .

٥٤- القصة ، ص ١١١ .

٥٥- القصة ، ص ١٦، ١٧ .

٥٦- القصة ، ص ١٤٧- ١٥٠ .

٥٧- القصة ، ص ١٥٠، ١٥١ .

٥٨- القصة ، ص ١٥١، ١٥٢ .

٥٩- القصة ، ص ١٥٢، ١٥٣ .

٦٠- القصة ، ص ١٥٥ .

٦١- القصة ، ص ١٥٦، ١٥٧ .

٦٢- فن القصة ، ص ١٢ .

٦٣- لمزيد من التفصيل في أبعاد هذه المذاهب الغربية ، ينظر : الأدب ومذاهبه – د.محمد مندور- دار نهضة مصر للطبع والنشر، ص٤٣- ١٦٣، الإسلامية والمذاهب الأدبية- د. نجيب الكيلاني- مؤسسة الرسالة، بيروت- سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص١٠٩-١٦٦، الإسلام في الأدب العربي المعاصر- د.إبراهيم عوضين- مطبعة السعادة ، القاهرة- سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، ص١٩-٢٤، مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر- د. إبراهيم عوضين- مطبعة السعادة ، القاهرة- سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص١٠٦- ١٢٥.

****

فهرست المحتوى

الموضـــــوع	الصفحة
ملخص البحث	٣
مقـدمة .	٤
أولاً- المحتوى العام .	٥
أ- مجريات الأحداث .	٥
ب- طبيعة الشخصيات .	٧
ج- أبعاد اجتماعية .	١٠
ثانياً : المسار الأسلوبي .	١٢
أ- السرد / الحوار/ الوصف .	١٢
ب- بين الخطاب التقريري ، والتصوير التجسيدي .	٤٥
١- الخطاب التقريري .	٤٥
٢- التصوير التجسيدي .	٥٣
تعقيـب .	٦١
الهوامش .	٦٣
فهرس المحتوى .	٦٧

****